

سلسلة تصدر عن مجلة البيان

كتاب  
البيان

# الإسلام لعصرنا

الجمعة الثانية

تأليف  
أ.د. جعفر شيخ إدريس

الإسلام لعصرنا

الجمعة الثانية

أ.د. جعفر شيخ إدريس

# الإسلام لعصرنا

المجموعة الثانية

تأليف الأستاذ الدكتور

جعفر شيخ إدريس

جميع الحقوق محفوظة  
الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

ح مجلة البيان ١٤٢٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

إدريس، جعفر شيخ

الإسلام لعصرنا - المجموعة الثانية - جعفر شيخ إدريس

- الرياض ١٤٢٦هـ

١٣٨ ص؛ ٢٤ × ١٧

ردمك: ١-٢-٩٦٣٧-٩٩٦٠

١ - الإسلام - مقالات ومحاضرات .

أ - العنوان

٢٦/٥٤٤٩

ديوي ٢١٠.٨

رقم الإيداع ٢٦/٥٤٤٩

ردمك ١-٢-٩٦٣٧-٩٩٦٠



## المقدمة

الحمد لله الذي يقول الحق وهو يهدي السبيل ، والصلاة والسلام على رسوله الهادي إلى الصراط المستقيم ، ثم أما بعد :

فإن الإسلام دين حي يحاول المستمسكون به أن يعيشوه كما هو في أي عصر أو مصر كانوا، يعيشوه في حياتهم الخاصة إيماناً وعبادة وسلوكاً، ويعيشوه في حياتهم العامة ثقافة ونظماً ومؤسسات ، ويعيشوه في حياتهم الفكرية دعوة إليه ودفاعاً عنه ورداً على خصومه . وقد حاولت أن أشارك بجهد المقل في المجال الأخير من هذه المجالات بمقالات قصيرة شهرية دأبت على كتابتها لمجلة البيان الغراء زادها الله بهاء شكلاً ومحتوى . وكما تكرم الإخوة المسؤولون بالمجلة بنشر تلك المقالات فيها فهم يتكرمون الآن بإعادة نشرها في كتاب يضمها كلها عسى أن يكون ذلك أبقي لها وأيسر على من يريد الرجوع إليها ممن قرأها من قبل أو لم يقرأها .

فأنا شاكر لهم في الأولى والآخرة سائلاً الله تعالى أن يجزيهم خيراً عني وعن كل من قرأ تلك المقالات أو من سيقروها .

وأنا شاكر كذلك للقراء الذين عبروا لي عن تقديرهم للمقالات وشجعوني على المضي قدماً في كتابتها .

وأنا شاكر أيضاً لأم عبد الرحمن المتمرس في المراجعة على تفضلها بمراجعة هذا الكتيب وإصلاح بعض ما وقع فيه من أخطاء .

والشكر من قبل ومن بعد لله رب العالمين الذي لولاه ما اهتدينا ولا تصدقنا

ولا صلينا ولا دعونا ولا كتبنا .

اجتهدت في أن أكتب هذه المقالات بعقل مسلم يدعم دعاواه بأدلة يرضى عنها العقلاء . فإن يكن فيها من صواب فالمحمود عليه الله ، وإن تكن الأخرى فمني ومن الشيطان فأعوذ بالله من شر نفسي وشر الشيطان وشركه .

وصلى الله وسلم على نبيينا محمد

أ.د. جعفر شيخ إدريس

(١)

يا فوكوياما!

## نحن مع التحديث.. وأبعد الله التغريب

(البيان ١٧٣ - المحرم ١٤٢٣ هـ - مارس - إبريل ٢٠٠٢م)

إنَّ أمر بعض الكتاب الغربيين لعجب . إنهم يعترفون بأن بلادهم تعاني من مشكلات أخلاقية واجتماعية توشك أن تهوي بها في مكان سحيق ؛ لكنهم يودون مع ذلك من كل عباد الله في سائر بلاد الله أن يتبنوا قيمهم التي توشك أن توردهم موارد الهلاك ، وإلا كانوا أعداء للحدثاء مكتوباً عليهم أن يعيشوا ويموتوا متخلفين . إن توهم اللزوم بين القيم الغربية - في الأخلاق والسياسة والاقتصاد والاجتماع - الذي بدأ يشيع في عصرنا منذ زمن طويل ، والذي جعل بعض المفسدين ينادي بأخذ كل شيء من الغرب حتى الديدان التي في بطونهم ! إن هذا التوهم أسطورة تقوم على عدم التمييز بين الأسباب الفاعلة والملابسات العارضة ، كالذي يقول لك إنك لا يمكن أن تأخذ التقنية منهم وتترك رقصهم وأغانيتهم وتحريمهم الزواج بأكثر من واحدة ، وينسى أو يتناسى أن هذه كانت سيرة القوم قبل أن يكون لهم علم طبيعي أو تكون لهم تقنية ، فلا علاقة لهذا بذلك ولا بالعصر الذي نعيش فيه .

لقد كتب فوكوياما كتاباً أسماه بـ (الانفراط العظيم) ذكر فيه - كما قلت في تلخيص له بهذه المجلة المباركة - أن الدول الصناعية كلها تعاني من تفكك اجتماعي عزا معظمه إلى تفكك في الأسرة ، وذكر أن من أسباب تفكك الأسرة اختلاط النساء بالرجال في أماكن العمل ، وانتشار حبوب منع الحمل ، ونظريات جعلت الإباحية تحراً ، وأن هذا كله أدى إلى ازدياد في معدلات الخيانات الزوجية ، ومعدلات الطلاق ، وأن تفكك الأسرة أدى إلى سوء تربية الأطفال ،

وإلى نقص في ما يسمونه بالرأسمال الاجتماعي : نقص في الثقة في الزعماء السياسيين ، ورجال الدين ، وازدياد في معدلات الجريمة ، وتعاطي المخدرات .

أَلِمِثْلِ هذا يدعونا فوكوياما اليوم إذ يدعونا إلى تبني القيم الغربية ، وإذ يزعم أن دعوته هذه ليست ناتجة عما يسمى بالعمى الثقافي ؛ وإنما لأن القيم الغربية هي القيم العصرية الصالحة لأن تكون عالمية ، وأنا إذا لم نأخذ بها فلا أمل لنا في تحديث مجتمعاتنا؟ إن لم يكن هذا عمى ثقافياً فلست أدري ما العمى الثقافي؟!

ولكن ماذا نقول لفوكوياما؟ نقول :

أولاً: إن التحديث في جوهره إنما هو الأخذ بكل الوسائل العلمية والتقنية والإدارية التي يتطلبها العصر والتي لا تكون الأمة بغيرها أمة قوية في اقتصادها وسلاحها وإعلامها؛ فهل وجد فوكوياما في الإسلام ما يتناقض مع شيء من هذا؟ ألم يأخذ المسلمون في تاريخهم بكل ما تطلّبت عصورهم المختلفة في هذه المجالات حتى صاروا - إلى نهاية القرن السادس عشر الميلادي - القوة العالمية الأولى في مجال التقدم العلمي والتقني والسلاح البري والبحري؟ فإذا كانوا قد حققوا كل هذا في الماضي مع استمساكهم بدينهم؛ فما الذي يمنعهم من تحقيقه تارة أخرى من غير ترك لهذا الدين؟ إن تخلف المسلمين المعاصر في هذه المجالات إن عزي إلى أي شيء فلا يمكن أن يعزى إلى دينهم؛ إذ ما الذي يجعلهم يعمون فجأة عن حقيقة دينهم فيرونه متناقضاً مع أمور كانت من أسباب قوتهم واستعلائهم؟

لكن فوكوياما - كأمثاله من الغربيين والمستغربين - يريد أن يقول لنا إن للتحديث شرطاً آخر ضرورياً يتناقض مع ديننا : إنه العلمانية ، فصل الدين عن الدولة ، وجعل الدين أمراً فردياً خاصاً .

ثانياً: إن فصل الدين عن الدولة في بلادكم شيء اخترقوه طائعين ، لم يفرضه عليكم أحد . ونحن اخترنا غير ما اخترتم ؛ فلماذا تريدون أن تفرضوا علينا ما لا نريد؟



ثالثاً: إن اختياركم كان لظروف خاصة بتاريخكم وطبيعة دينكم والحروب التي نشأت بينكم، ومنها الحرب التي تذكرونها دائماً - أعني حرب الثلاثين عاماً - ونحن أصحاب تاريخ مختلف عن تاريخكم، ودين مختلف عن دينكم ولم يحدث عندنا ما حدث عندكم.

رابعاً: إنكم تقولون إن السلم المدني لا يتأتى إلا في نظام علماني لا يكون للدين فيه نصيب. لكن تاريخكم يحدثنا بأن العلمانية لم تحقق هذا السلم على المستوى العالمي، بل إن أول حربي عالميتين في تاريخ البشرية حدثتا عندكم وبين بلاد علمانية، ونتج عنهما من الضحايا البشرية والدمار والفساد ما لم يكن له مثيل في تاريخ البشرية.

خامساً: إنه إذا كان دينكم لا يقبل العيش مع الأديان الأخرى، فإن ديننا يقبل مثل هذا التعايش ويعطي غير المسلمين من حرية العبادة وتسيير شؤونهم الخاصة ما لا تعطيه العلمانية. نعم إن هنالك مناطق مستثناة من هذا التعايش، لكن ليس من شرط التعايش أن تُفتح أراضي المسلمين كلها لغير المسلمين. فالقول بأن «التسامح» لا يتحقق إلا في دولة علمانية دعوى لا سبب لها إلا العمى الثقافي.

سادساً: وإذن فالقول بأن مشكلة المسلمين مع الحضارة الغربية هو تسامحها الديني، أو ديمقراطيتها ليس بصحيح. لماذا يعادي المسلمون نظاماً يسمح لهم بأن يدعوا إلى دينهم؟ لماذا ودينهم بسبب تلك الحرية هو أكثر الأديان نمواً في الولايات المتحدة؟ ليس المسلمون هم الذين يكرهون هذا ويريدون إيقافه، وإنما هم المتعصبون المتشنجون من بعض المتدينين وبعض الملحدين؛ فرجاء لا تخلطوا الأوراق كما يقولون.

سابعاً: إن كثيراً من الغربيين أنفسهم يرون أن العلمانية سبب أساس إن لم تكن السبب الأول لتلك الأمراض التي ذكر فوكوياما أن المجتمعات الصناعية كلها تعاني منها، والتي سرت عدواها إلى العالم كله بما فيه عالمنا الإسلامي بسبب إصرار بعضنا على التقليد الغبي لكل ما هو غربي.

ثامناً : عجباً لأمر الغربيين الذين يقولون إن ديننا هو سبب ضعفنا وتخلفنا .  
أفتراهم حريصين على أن نكون أقوياء؟ كيف وهم يعدوننا العدو الأول بعد  
سقوط الشيوعية؟ كيف وهم يرون أن الصدام بين الحضارات قادم لا محالة؟  
أفيريدون لعدوهم أن يملك من القوة ما يملكون؛ ولذلك فهم ينصحونه أن يأخذ  
بأسبابها التي منها إقصاء الدين؟ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا  
كذباً .

تاسعاً : إن فصل الدين عن الدولة لا يكون إلا بتحريف الدين أو عدم الإيمان  
بشيء منه . لكن الكفر بشيء مما أنزل الله هو كفر بالله ؛ لكنه مع ذلك أمر مرد  
عليه اليهود والنصارى منذ أزمان سحيقة ؛ فلا عجب أن يسهل عليهم اليوم وهم  
يقرؤون كتباً دلتهم دراساتهم الحديثة أنها ليست قطعاً بالكتب التي أنزلها الله على  
رسله ، وبرهنت لهم أن فيها أقوالاً مخالفة للحقائق التي اكتشفتها العلوم  
التجريبية . بل إن المتحررين منهم - وهم الأغلبية الآن - يعتقدون أنه إنما كتب هذه  
الكتب بشر عاديون ، وأنهم تأثروا في كتابتها بالظروف الثقافية السائدة في  
عصورهم ، وأنه ما دامت ظروفنا الثقافية اليوم مختلفة عن ظروفهم فلا يلزمنا أن  
نلتزم بكلام كُتب في زمان غير زماننا . وهم لهذا السبب يبيحون أموراً كالشذوذ  
الذي تعده كتبهم من الجرائم .

لكننا - نحن المسلمين - مختلفون عنهم في هذا كله ؛ فنحن موقنون بأن  
الكتاب الذي بين أيدينا هو كلام الله الذي أنزل على رسولنا ، نقرؤه بلغته التي  
أنزل بها ولا نجد فيه - رغم - تطاول الزمن ما يخالف حقيقة من ملايين الحقائق  
العلمية التي اكتشفت بعد نزوله . بل إننا لنرى في كل يوم مصداق ما به أخبر ،  
والحكمة في ما عنه نهى أو به أمر ؛ فلماذا نترك حقنا لباطلكم؟

أقول هذا مع أنني أعلم أن أمثال فوكوياما لا يمثلون رأي المتدينين في تلك  
البلاد ، بل إن فيهم من يخالفه خلافاً جوهرياً في أساس منطلقاته التي لا تعطي  
للدين اعتباراً .

هذا ، وسيرى الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .

(٢)

## الإنصاف في معاملة غير المسلمين

(البيان ١٧٥ - ربيع أول ١٤٢٣ هـ - مايو - يونيو ٢٠٠٢ م)

أصبح من بدهيات عصرنا أننا نعيش اليوم في عالم تشابكت فيه مصالح الأمم؛ فلم يعد من الممكن لواحدة منها بلغت من القوة ما بلغت أن تنزل مستقلة عن غيرها مستغنية بنفسها. فنحن إذن محتاجون إلى معالم نهتدي بها في تعاملنا مع غيرنا معاملة نحقق بها مصالحنا ولا نساوم بها على ديننا. أول معلم يهدينا إليه كتاب ربنا هو أن معاملتنا لغيرنا يجب أن تؤسس على الحقائق، حقائق الدين المتلوة، وحقائق الواقع المشهودة. من أمثلة الحقائق الواقعية التي يخبرنا بها ربنا ويأمرنا أن نبني عليها تعاملنا قوله - تعالى - : ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]. أي إنه إذا كان الشيطان عدواً فيجب أن تكون معاملتك له مبنية على هذه الحقائق، لا على أمور عنه تتوهمها.

والحقائق الواقعية يمكن أن يدركها البشر إدراكاً مباشراً، كما يمكن أن يعرفوها بخبر الله - تعالى - في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ. وأخبار الله - تعالى - صادقة، والخبر الصادق هو المطابق للواقع، وإلا فهو كاذب. فما الحقائق المشهودة التي يخبرنا بها ربنا أو نشاهدها بأنفسنا عن غير المسلمين ممن يساكنوننا هذه الأرض في عصرنا هذا؟ أول ما نتعلمه من ديننا ويؤكد لنا واقعنا أنهم وإن كانوا جميعاً غير مسلمين لكنهم ليسوا سواء في قربهم وبعدهم من حقائق الدين، وليسوا سواء في معاملتهم للمسلمين. وإذا كانت هذه حقيقة فيجب أن لا نغفلها في تعاملنا معهم. يجب أن نعامل كل فرد أو جماعة منهم بحسب ما نعرفه من حالهم؛ وهذا ليس إنصافاً لهم فحسب لكنه أمر ضروري لتحصيل كثير من المصالح ودفع كثير من المفاسد. لكننا كثيراً ما نجنح إلى التعميم حيث يكون

التمييز هو الأنسب، وكثيراً ما نذكر آيات تدل على هذا العموم ونغفل الآيات التي تخصصه أو تقيده.

من القريب منا ومن البعيد من اليهود والنصارى وسائر المشركين؟ سيسارع بعضنا إلى تذكيرنا بمثل قول الله - تعالى -: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]، ويريد أن يستدل بهذا على أن ما قاله ربنا - سبحانه - ينطبق على كل فرد منهم، وأن معاملتنا لهم يجب إذن أن تكون كلها مرتكزة على هذه الحقيقة. لكن كتاب ربنا نفسه يدلنا على خطأ هذا الفهم. إن صيغة الآية صيغة عموم ما في ذلك شك، لكنها مخصوصة بآيات أخرى، وبواقع نشاهده. فكتاب ربنا يخبرنا أن بعض النصارى يسلمون:

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣].

فهؤلاء نصارى لكنهم لم يكونوا من النوع الذي لا يرضى عنا إلا إذا اتبعنا ملتهم، بل اعترف بأن ملتنا هي الحق، وهداه ربه إلى قبول هذا الحق. وما أخبرنا به ربنا في القرآن الكريم ما نزال نشاهده في أفراد من النصارى يسلمون ويكون حين يسلمون. وما يقال عن النصارى يقال أيضاً عن اليهود؛ فإن منهم أيضاً من هداه الله - تعالى - إلى الإسلام من أمثال الصحابي الجليل عبد الله بن سلام الذي شهد له الرسول ﷺ بأنه من أهل الجنة.

وما يقال عن تلك الآية يقال أيضاً عن آيات أخرى عمومها الظاهري مخصوص. من ذلك قوله - تعالى -: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ غَزِيرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠].

كنت أفهم هذه الآية الكريمة على عمومها الظاهري هذا، فكتبت كتيباً باللغة الإنجليزية منذ ما يقرب من ثلاثين عاماً استدلت فيه بها على أن اليهود يؤلهون عزيزاً كما يؤله النصارى عيسى. فعجبت عندما أخبرني الإخوة الناشرون بأنه

جاءتهم احتجاجات من بعض اليهود على ما نسبته إليهم، وطالبوني بالدليل. ولم يكن لدي من دليل غير القرآن الكريم. لكن أحد إخواننا السودانيين - الدكتور إبراهيم الحارذلو - ممن درسوا العبرية وتاريخ اليهودية، أخبرني أن أستاذه اليهودي نفسه كان قد استغرب مما ذكره القرآن الكريم، لكنه ذهب وراجع كتب تاريخهم، ثم جاء ليقول للأخ إنه كان بالفعل هنالك جماعة من اليهود في المدينة في ذلك الوقت يؤمنون بأن عزيراً ابن الله. وعندما راجعت كتب التفسير وجدت ما فيها مطابقاً لما قال. فابن كثير مثلاً يقول بعدما ذكر عن السدي قصة طويلة عن عزير: «فقال بعض جهلتهم إنما صنع ذلك؛ لأنه ابن الله». ويقول صاحب التحرير والتنوير: «والذين وصفوه بذلك جماعة من أحبار اليهود في المدينة وتبعهم كثير من عامتهم».

كل هذا يدل على أنه من الخطأ أن تفهم الآية الكريمة على عمومها الظاهري فيظن أنها تنطبق على كل فرد ينتسب إلى اليهودية؛ لأن من اليهود المحدثين من لا يعلم أن بعضاً من سلفه كان يقول هذا؛ فكيف ينسب إليه قولهم؟ وقد أعجبني في هذا الصدد إنصاف شيخ الإسلام ابن تيمية حين فرق بين من حرّف ومن لم يحرّف من أهل الكتاب فقال: «وعلى هذا؛ فإذا كان بعض أهل الكتاب قد حرفوا بعض الكتاب، وفيهم آخرون لم يعلموا ذلك فهم مجتهدون في اتباع ما جاء به الرسول، لم يجب أن يجعل هؤلاء من المستوجبين للوعيد»<sup>(١)</sup>. بل إن في واقعنا اليوم ما هو أغرب من هذا؛ فهنالك اليوم آلاف مؤلفة ممن ينتسبون إلى النصرانية في أمريكا لكنهم لا يؤمنون بأن عيسى ابن الله!

أسوق كل هذا لأقول إننا يجب أن نعامل الناس بحسب الحقائق التي نعرفها عنهم، ولا نلزمهم باعتقاد ينكرونه مستدلين على ذلك بالقرآن الكريم. كيف أفعل مع إنسان يزعم أنه نصراني لكنه يصرح بأنه لا يعتقد بأن المسيح ابن الله؟

(١) الجواب الصحيح، ج ٢، ص ٢٩٥.

هل أقول له : ما دمت نصرانياً فلا بد أن تؤمن بأنه ابن الله ؛ لأنه هكذا أخبرنا كتاب ربنا؟ في مقابل هذا إذا وجدت من يزعم أنه يهودي أو نصراني لكنه لا يؤمن بضرورة الذبح مثلاً فلن آكل طعامه ؛ لأن طعامه إنما أحل لنا بسبب أنهم يذبحون . أما الذي نعلم أنه لا يذبح طعامه حرام حتى لو كان مسلماً ؛ فكيف إذا كان يهودياً أو نصرانياً؟ وبمثل هذا السبب لم يعامل المسلمون نصارى بني تغلب معاملة النصارى ؛ لأنهم كما قال عنهم أمير المؤمنين علي - رضي الله عنه - : «لم يتمسكوا بشيء من النصرانية إلا بشرب الخمر»<sup>(١)</sup> .

نعم إذا وجدت فرداً أو جماعة من اليهود أو النصارى يتصفون بمثل صفات اليهود والنصارى الذين قال الله - تعالى - عنهم إنهم لن يرضوا عنا حتى نتبع ملتهم ، أو أنهم شديداً العدو لنا ، فلن أصدق إنكارهم لهذا ؛ لأن هذه حالات قلبية يمكن أن يكونوا فيها كاذبين ؛ بل لا بد أن يكونوا كاذبين إذا كان حالهم الظاهري يشبه حال الذين تحدث عنهم القرآن الكريم .

إذا أردنا أن نعامل غيرنا معاملة منصفة ، والمعاملة المنصفة هي دائماً في مصلحتنا ، فلا بد لنا من معرفة مثل هذه الحقائق وتذكرها والالتزام بها في معاملتنا لهم ولا سيما في القضايا الكبيرة مثل قضية فلسطين . إن بعض اليهود - وإن كانوا قلة - هم معنا في عداوتهم للحركة الصهيونية ، بل وفي إنكارهم لقيام دولة إسرائيل ؛ فهل من الإلصاف لهم ، وهل من مصلحتنا أن نقول لهم إننا لا نفرق بين يهودي وصهيوني في حربهم لنا؟ إن من الأمريكان ومن الأوروبيين من يهودهم ونصاراهم ومشركيهم من هم مع الحق الفلسطيني وضد الاعتداء الصهيوني ، وهم لا يستخفون باعتقادهم هذا ، بل يستعلنون به كلاماً وكتابة ومواقف عملية . أفليس من حقهم علينا أن نشكرهم على هذا ، بل ونكافئهم إن استطعنا؟ ثم أليس من مصلحتنا أن تنشق صفوف المعتدين ويكثر عدد المنصفين؟

(١) تفسير الطبري .

كيف إذا سمع أمثال هؤلاء أن بعض المتدينين منا هم الذين لا يقدرّون لهم هذا المعروف، وهم الذين لا يميزون بين معتد ومنكر للاعتداء ومحايّد لا هو معنا ولا ضدنا. أليس في هذا فتنة لهم؟ ما هكذا كان يفعل رسولنا الكريم ﷺ. ألم يقل يوم بدر عن أسارى المشركين: «لو كان المطعم بن عدي حياً ثم كلمني في هؤلاء التتني لتركتهن له» كان سيفعل هذا مكافأة له؛ لأنه كما قال الحافظ ابن حجر: «كان من أشد من قام في نقض الصحيفة التي كتبتها قريش على بني هاشم ومن معهم من المسلمين حين حصروهم في الشَّعب»<sup>(١)</sup>.

إن الذي ينبغي أن نتذكره نحن -المسلمين- أن ديننا يخبرنا بأن كل إنسان يولد حين يولد على الفطرة، وأن الشر الذي يتلبسه طارئ عليه. والشر الطارئ يختلف قوة وضعفاً من إنسان لإنسان. وقلّ أن تجد إنساناً فقد كل الخير الذي فطره الله عليه، فعاد لا يرى المعروف إلا منكراً والمنكر إلا معروفاً. كلاً؛ فعامة الناس فيهم شيء من نبض الفطرة؛ ولذلك يُسلم بعضهم حين تتبين له الحقيقة. ولذلك تجد فيهم الكريم والمنصف والشجاع في قول الحق. فعلينا أن نستثمر هذه الصفات الحسنة في الناس ونجازيهم عليها؛ فذلك خير لنا، وهو من سنة نبينا ﷺ.

\* \* \*

(١) الفتح، ج ٧، ص ٣٢٥.

(٣)

## الاعتبار بمآلات معاصي الكفار

(البيان ١٧٧ - جمادى الأولى ١٤٢٣ هـ - يوليو - أغسطس ٢٠٠٢ م)

خلق الله الإنسان روحاً وجسداً، ذكراً وأنثى، فرداً وجماعة. وكما جعل لجسده تركيباً معيناً ذا خصائص معينة لا يصلح لها إلا نوع خاص من الطعام والشراب والهواء ودرجات الحرارة وغير ذلك، جعل لروحه أيضاً تركيباً خاصاً لا يصلح له إلا نوع معين من المعتقدات والأحوال والأقوال والأعمال. ثم جعل بين الجسد والروح علاقة تبادل وتكامل، وكذلك بين الذكر والأنثى والفرد والجماعة. ثم جعل بين كل هذه الصور الإنسانية علاقات، ثم جعل بينها وبين عالم الملائكة والجن والطبيعة علاقات معينة لا يعلمها على حقيقتها وبكل تفاصيلها إلا هو - سبحانه -: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

فالله يخبرنا أن بعض أعمالنا تؤثر في الطبيعة: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، والفساد المقصود هنا هو الفساد الطبيعي المادي لا الفساد الخلقي، بل هو ناتج عن الفساد الخلقي المشار إليه بقوله - تعالى -: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]. ولأعمالنا تأثير على الملائكة لأنها - كما يخبرنا الرسول ﷺ -: «إن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم»<sup>(١)</sup> ولأنها لا تدخل بيتاً فيه صورة كما يخبرنا الرسول ﷺ أيضاً. ولأعمالنا أيضاً تأثير على الجن، ولأعمال الأفراد منا تأثير على المجتمع؛ ولذلك حرم الله أشياء مثل السرقة والظلم والبغي. ولتصرفات الرجال تأثير على النساء كما لتصرفات النساء تأثير على الرجال: «لا يخلون رجل بامرأة إلا كانا الشيطان»<sup>(٢)</sup>.

ثم أرسل رسله بشرع يحقق للناس مصالحهم الروحية والجسدية، الدنيوية

(١) أخرجه مسلم، رقم ٨٧٦.

(٢) أخرجه الترمذي، رقم ١٠٩١.



والأخروية؛ لأنه شرع قائم على علم المشرع الخالق - سبحانه - علماً محيطاً بكل تلك الخصائص والعلاقات، وما يصلح لها وما لا يصلح من تصرفات الناس الاختيارية: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: ٢٢٠]. والذين يستمسكون بشرع الله تعالى - وإن لم يعلموا تفاصيل الأسس التي بناها الله تعالى عليها - يجدون في تجربتهم مصداق ما وعد الله به من الآثار الحميدة لهذا الشرع في حياتهم، حتى إن قائلهم ليقول: لو علم الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف. وكما يعرف المؤمن بتجربته الآثار الطيبة للطاعة فإنه يعرف بتجربته أيضاً كثيراً من الآثار السيئة للمعاصي التي لا يبرأ منها أحد، وإن اختلفوا فيما يقتربون منها صغراً وكبراً، كيف و«كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون»<sup>(١)</sup>.

لكن الآثار العظيمة للمعاصي كبيرها وصغيرها إنما تظهر في المجتمعات الكافرة الغافلة غفلة كاملة عن شرع الله عقيدة وعبادة وخلقاً وسلوكاً وحياة اجتماعية وسياسية واقتصادية. وكلما كثرت المعاصي وكلما طال أمد مقارفتها والجهل بها واعتيادها كان ظهور آثارها السيئة أكبر وأبين. وإنه لما يزيد إيمان المؤمن بصدق الرسالة النبوية وتحقيقها للمصالح البشرية أن يرى هذه الآثار السيئة لمخالفتها.

إن الاعتبار بالواقع طبيعياً كان أم اجتماعياً منهج إسلامي أصيل ترشد إليه كثير من نصوص الكتاب والسنة في مثل قوله - تعالى -: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [الأنعام: ١١]، ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٩]. وذلك أن المصالح التي وضعت الشريعة لتحقيقها والمفاسد التي وضعت للتحذير منها ما هو أمر ظاهر يمكن مشاهدته، ويسهل لذلك الاعتبار به. ولذلك ندب الله - تعالى - عباده المؤمنين إلى الاعتبار

(١) أخرجه الترمذي، رقم ٢٤٢٣.

بأحوال الكفار ومصائرهم .

ونحن نعيش في عصر عمت فيه بلوى البعد عن شرع الله في مجتمعات كاملة كالمجتمعات الغربية ؛ لذلك أرى أنه من واجبنا وخدمة لديننا وتحقيقاً لمصالحنا أن نُعنى بمآلات معاصيهم وندرسها ونتدبرها ونشرها بين الناس مسلمين وغير مسلمين ، بل أن نجعل هذا الاعتبار بتجارب الغربيين الكفار علماً قائماً بذاته نحشد له جهودنا جمعاً لمواده وتصنيفاً ، وتفسيراً علمياً لها ، ودعوة إلى الاتعاظ والاعتبار بها . ونحن لا نحتاج لتحقيق ذلك أن نقوم بإجراء بحوث ميدانية في المجتمعات الغربية ؛ فقد كفونا هم مؤونة ذلك . فمن حسنات منهجهم العلمي في مجال الدراسات الاجتماعية أنهم يبحثون في الآثار المترتبة على أعمالهم ، ويحاول علماءهم أن يكونوا في ذلك محايدين لا تصدهم آراؤهم الشخصية عن نشر نتائج ما وصلوا إليه من دراسة وتجارب . فحياة الغربيين التي يمارس فيها ما حرم الله - تعالى - ينبغي أن تكون بالنسبة لنا - كما ذكرت في مناسبة سابقة - كالتجربة التي يسميها العلماء الطبيعيون التجربة الحاكمة (control experiment) .

ما أكثر المادة العلمية المتعلقة بتأثير المعاصي على حياة الغربيين ، معاصي الزنا والشذوذ وشرب الخمر وتعاطي المخدرات واختلاط الرجال بالنساء والسفور ، بل وحتى تولي المرأة لعمل الرجال ، وتولي الرجال لأعمال النساء .

ولكي يفى هذا العلم المقترح بشروط العلم فينبغي أن يكون اعتماده على الحقائق التي اكتشفها الغربيون بالوسائل العلمية ، وأن توثق هذه الحقائق بذكر مراجعها ، وأن لا يخلط بينها وبين الآراء التي يعبر عنها بعض الغربيين لمجرد أنها موافقة لديننا ؛ لأن الرأي ليس له سلطان الحقيقة العلمية . والحقائق العلمية التي أعنيها تشمل كل أنواع العلوم الطبيعية والاجتماعية والنفسية . ولذلك فإنه لا بد من أن تتضافر على جمعها جهود كل المختصين أو المهتمين بهذه العلوم . وهذا يقتضي أن يكون هنالك مركز ترسل إليه هذه الحقائق لجمعها وتصنيفها ثم

نشرها . ولما كانت هذه الاكتشافات مستمرة فلا بد أن يكون جمعها وتصنيفها ونشرها أيضاً مستمراً . ولهذا ربما كان الأنسب لنشرها هو المجلات ، أو الكتيبات الشهرية .

قد يشير هذا الاقتراح سؤاليين :

أولهما : إن ما تدعو إليه ليس بالأمر الجديد ؛ فما أكثر ما كتب الإسلاميون في مقالاتهم وكتبهم عن الآثار التي ترتبت على ما شاع في البلاد الغربية من معاص وانحرافات . ونقول هذا صحيح . وقد كنت أنا نفسي لخصت لمجلة البيان كتاباً لفوكوياما : (الانفراط أو التفكك الحاصل في المجتمعات الغربية) وعزوه أسباب ذلك إلى تفكك الأسرة الذي كان بدوره ناتجاً عن تفشي العلاقات الجنسية خارج نطاق الزوجية . وقد كتب صديقنا أستاذ علم النفس الدكتور مالك بدري كتاباً كاملاً عن العلاقة بين مرض الإيدز والقيم المصاحبة للحدثة . لكن الذي ندعو إليه هو أن يولي هذا الأمر عناية أكبر ، وأن يشارك في جمع معلوماته عدد أكبر ، وأن يوضع له منهج وضوابط تجعل منه علماً معترفاً به .

وثاني السؤالين هو : لماذا يُحصَر هذا العلم في ممارسات الدول الغربية ؛ مع أن الواقع هو أن كثيراً من تلك الممارسات شاعت في العالم كله بما فيه العالم الإسلامي ؟ ونقول أيضاً : إن هذا صحيح ؛ لكن الغرب كان أسبق إليها ، وقد داوم عليها لمدة أطول ، وصار يستعلن بها ، ويدافع عنها ، ويدعو إليها ، بل يحاول - عن طريق الأمم المتحدة - أن يفرضها على بقية شعوب العالم . ولكن مع هذا لا بأس من تعزيز النتائج التي حدثت في الغرب بمثيلات لها في بقية بلدان العالم .

(٤)

## الحرية والعبودية

(البيان ١٨٢ - ذو القعدة ١٤٢٣ هـ - يناير ٢٠٠٣ م)

الفكر الغربي الشائع اليوم فكر إلحادي؛ لأنه كان في أصله رد فعل على الكنيسة ثم على الدين؛ فكان لذلك محاولة لإيجاد أسس فلسفية غير دينية يستند إليها الفكر العلمي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي والنفسي وغير ذلك. وكونه كذلك لا يعني أن كل ما فيه من تفاصيل باطلة، لكنه يعني أنه يستند في مجمله على أساس واهٍ.

لكننا كثيراً ما نأخذ هذا الفكر معزولاً عن بيئته تلك الفكرية الإلحادية، فنعدّه فكراً إنسانياً صالحاً لكل زمان ومكان، بل كثيراً ما ندعي لذلك أن ديننا يقول به أو أنه - على الأقل - لا يعارضه، وويل لمن يقول غير ذلك من أمثالي. أضرب في هذا المقال مثلاً بمفهوم واحد هو مفهوم الحرية الذي يكاد أن يكون أمراً مسلماً به عند جميع الناس في عصرنا، فأقول:

إن الحر حرية كاملة هو الذي لا قيود على تصرفه ألبتة - هو الذي يفعل كل ما يريد. لكن الفعل يحتاج إلى علم وإلى إرادة وقدرة. فالحر حرية كاملة يجب أن يكون ذا علم كامل وقدرة كاملة وإرادة نافذة. ولا يمكن أن يكون للفاعل علم كامل وقدرة كاملة وإرادة نافذة إلا إذا كان مستغنياً عن غيره استغناء كاملاً لا يحتاج إلى أن يتعلم منه شيئاً، ولا أن يكتسب منه مقدرة؛ لأن الحاجة إلى علم الغير أو مقدرته قيد يتنافى مع كمال الحرية.

فما يقوله المدافعون عن الديمقراطية من أن الإنسان لا يكون حراً إذا هو أطاع قانوناً ليس من صنعه كلام صحيح. لكنهم معترفون بأن الإنسان لا بد له من أن يعيش في جماعة، وأن العيش في الجماعة يتطلب وجود سلطة تأمر وتنهى

وتعاقب، وأن القوانين التي بمقتضاها تفعل هذا لا يمكن أن تكون كلها من صنع كل الأفراد الذين يكوّنون المجتمع، وأن مشاركة الأفراد وإن كانت في النظام الديمقراطي أكثر منها في غيره، إلا أن صنع القوانين حتى في هذا النظام هو في النهاية من صنع قلة من أفراد المجتمع متمثلة في أعضاء المجالس التشريعية. وعليه فإذا كانت المشاركة في وضع القوانين هي معيار الحرية؛ فإن الناس ليسوا أحراراً إلا بقدر يسير حتى في الديمقراطية. بل نقول إنه حتى صنع القوانين ليس ضماناً للحرية حتى لو كان الفرد يتصرف كيف شاء. لماذا؟ لأنه قد يتبع نفسه هواها، فيفعل كل ما تأمره وتريده شهواته من إسراف في الأكل، وشرب للخمر، وتعاطي للمخدرات، وارتكاب للفواحش، وهكذا. مثل هذا الإنسان - ومثله اليوم كثير في الغرب - ليس حراً. نعم إنه ليس عبداً لبشر مثله! ولكنه عبد لهواه.

### ما المخرج إذن من هذه العبودية؟

لا أمل للإنسان في حرية مثل تلك التي تريدها الفلسفات الغربية؛ وذلك أن كل الناس - بما فيهم منكرو وجود الخالق - سبحانه - مقرون بأن الإنسان ليس هو الذي أوجد نفسه، ولا هو الذي يبقّيها، وأن علمه مكتسب، وهو علم ناقص، وأنه يعتمد في استمرار حياته على ظروف لا قبّل له بالسيطرة عليها. فالضياء يأتيه من الشمس، والماء من المطر، والزرع من الأرض، وهكذا. فأنى يكون حراً؟ وأنى يكون مستقلاً بقراره؟

والمؤمنون بوجود الخالق مقرون بأن الله هو وحده ذو العلم الكامل، والقدرة الكاملة، والاستغناء الكامل، فهو وحده الفعال لما يريد. أما الإنسان فهو مخلوق، وبما أنه مخلوق فهو مملوك لخالقه، والمملوك عبد. فالصفة التي تدل على حقيقة الإنسان هي كونه عبداً لا حراً، لكنه عبد لخالقه لا لمخلوقات مثله. وعبوديته لخالقه تتمثل في كونه - شاء أم أبى - محكوماً في كل تصرفاته بمشيئة خالقه. نعم إن للإنسان مشيئة! ونعم إن له قدرة! لكن خالقه هو الذي شاء أن

يجعله شائئاً، وهو الذي شاء أن يجعل له قدرة . فمشيئته ليست مطلقة ، بل هي مقيدة بمشيئة خالقه . فإذا كان الخالق فعالاً لما يريد ، فإن الإنسان يريد ما لا يكون ويكون ما لا يريد .

لكن الخالق الذي جعل لخلقه قوانين كونية قهرية لا اختيار لهم في طاعتها ، قد جعل للبشر قوانين شرعية لا تتم سعادتهم الدنيوية والأخروية إلا بها ، لكنه جعلها قوانين اختيارية من شاء منهم أن يلتزم بها فعل ، ومن لم يشأ لم يفعل . إذا فعل كان عبداً لله باختياره كما هو عبد له باضطراره . وإذا لم يفعل كان عبداً لهوى نفسه أو هوى غيره من البشر . فالوسيلة الوحيدة لتحقيق ما يريده دعاة الديمقراطية - أعني التحرر من العبودية للبشر - لا تكون - كما رأينا - بأن يسن كل فرد لنفسه ما شاء من قوانين . إنها لا تكون إلا بإخلاص العبودية لله بطاعة ما شرع في كل مجالات الحياة . لا مجال إذن للتخلص من العبودية للبشر إلا بالعبودية لخالق البشر . فالإنسان ليس إذن مخيراً بأن يكون حراً أو يكون عبداً ، بل هو مخير بين عبوديتين .

ولهذا كانت الدعوة إلى أن تكون للإنسان حرية التشريع مرتبطة دائماً بالدعوة إلى التمرد على شرع الله ؛ لأنها في حقيقتها دعوة إلى أن يكون المخلوق العبد المملوك - فرداً أو جماعة - إلهاً مشرعاً لنفسه أو لغيره . وكان الرد الإلهي دائماً أن الإنسان المخلوق ليس من حقه أن يضع من القوانين ما شاء فيحل ويحرم ويأمر وينهى ، حتى لو كانت القوانين خاصة بشخصه ، وأن الخالق هو الذي من حقه - حقاً لا ينازعه فيه غيره - أن يشرع وأن يطاع .

المتخذون من دون الله آلهة من الأهواء يقولون : ﴿ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴾ [هود : ٨٧] .

﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ [غافر : ٢٩] .

لكن الرب الخالق يقول : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ

مِّن شَيْءٍ ﴿٩١﴾ [الأنعام: ٩١].

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].

(يترك سدى أي يهمل فلا يؤمر ولا يُنهى ولا يُبعث ولا يُحاسَب).

ويقول: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِّزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩].

ولكن بما أن للإنسان إرادة مهما كانت محدودة، وبما أن له قدرة مهما كانت أيضاً محدودة، فإن له حرية في حدود قدرته وإرادته. لكنه قد يفقد قدراً من هذه الحرية العادية المحدودة حين يُسترق فيكون عبداً يملكه ويبيعه ويشتره بشر مثله. فإذا ما أعتق قلنا إنه قد صار حراً، أي رجع إلى الحرية المعتادة التي وهبها الله - تعالى - لكل الناس. وقد يحبس ويعتقل فتحد من حريته؛ فإذا ما خرج من الحبس قلنا إنه قد أطلق سراحه. وقد تتسلط أمة على أمة أخرى فتحكمها، فإذا ما تخلصت منها قلنا إنها قد نالت حريتها، وقد يتسلط حاكم ظالم على أمة فيفرض عليها أحكاماً بهواه كما كان فرعون يقول لشعبه: ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد. وقد يمنعونهم من بعض ما أباح الله أو أوجب من الكلام والحركة والاجتماع، فإذا ما تخلصوا منه قلنا إنهم صاروا أحراراً. لكن أسوأ أنواع العبودية أن يكون الإنسان باختياره عبداً لمخلوق مثله، عبداً له يدعو ويرجوه ويتوكل عليه ويستغيث به، أو يرضى له بحق التشريع والطاعة فيجعله في مقام المولى سبحانه. ولا فرق في هذا بين أن يكون الحكم دكتاتورية أو وصائية أو ديمقراطية ما دام حكم بشر مخالفاً لحكم الله تعالى. بل إن الإنسان ليكون عبداً حتى لو كان هو المشرع لنفسه؛ لأنه يكون حينئذ متبعاً لهواه متخذاً إياه إلهاً ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، وذلك أنه إما أن يكون الإنسان عبداً لله أو عبداً لهواه ولا واسطة بين الأمرين ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٥٠]. وعليه فلا سبيل إلى التحرر من العبودية

للشعر إلا بإخلاص العبودية لخالق البشر .

فالقول بأن الإنسان حر أو أنه ينبغي أن يكون حراً - بالمعنى الغربي الشائع - كلام يكذبه الواقع ، ثم إنه مخالف للإيمان بأن الإنسان عبد لله يأتمر بأوامره ، وقد أدرك هذا بعض الكتاب النصاري ، منهم كاتبهم الإنجليزي المشهور لويس الذي قال كلاماً فحواه : إنني لم أولد لأكون حراً ، وإنما ولدت لأسمع وأطيع .

\* \* \*



(٥)

## هل نداوي بالتي كانت هي الداء؟

(البيان ١٨٤ - ذوالحجة ١٤٢٣ هـ - فبراير ٢٠٠٣ م)

في خطابه الأخير عن مشروع العلاقات الجديدة بين الولايات المتحدة والعالم العربي ذكر وزير الخارجية الأمريكي حقائق عن وضع العالم العربي الاقتصادي والتقني كان كثير من المثقفين العرب يعرفونها، ويندئ جبينهم لها حين يسمعونها.

فنقول: إذن إن معظم ما ذكره وزير الخارجية في هذا الجانب هو حقائق نحن معترفون بها، ولا مجال لإنكارها.

ونقول ثانياً: إنه مهما كانت لهذا التخلف المزري من أسباب خارجية فإننا نحن المسؤولون أولاً عن أسبابه الداخلية.

لكننا نقول ثالثاً: إن علاجها ليس في ما اقترحه علينا باول، بل إن في ما اقترحه ما يزيد طينتنا بلّة، بل هو نذير شؤم يذكّرنا بالمنطق الذي استعملته الحضارة الغربية لاستعمار بلدان العالم. لقد كانوا يسوّغون غزوهم واحتلالهم وتسخيرهم للشعوب بأنه إنقاذ لها من وهدّة التخلف وسوقهم قسراً إلى يفاع التحضر. أليس هذا هو الذي تعنيه كلمة الاستعمار في أصلها اللغوي؟

لقد ظل الغربيون كُتّاباً وساسة يدندنون حول فكرة سخيصة باطلة هي أنه لن تتقدم أمة تقدمهم المادي إلا إذا سلكت طريقهم الراهن حذو القُذّة بالقُذّة. أي إلا إذا صار نظامها السياسي مثل نظامهم، وموقفها من دينها مثل موقفهم من دينهم يحرفونه كما شاؤوا، ويخضعونه لأهواء عصرهم، ويفصلون بينه وبين دولتهم، وإلا إذا صارت حياتهم الجنسية مثل حياتهم اختلاطاً بغير ضابط بين الرجال والنساء، وإباحة لكل علاقة جنسية بين كل بالغين متراضين رجلين كانا أو

امرأتين أو رجل وامرأة، بل إلا إذا كانوا مع ذلك موالين للغرب خاضعين له خادمين لمصالحه .

ونحن نعلم من كتاب ربنا ومن تجارب عصرنا والعصور التي سبقتنا أن كل هذه أباطيل لا علاقة لها بالتقدم المادي .

الديمقراطية مهما كان فيها من حسنات ليست بشرط ضروري للتقدم الاقتصادي والعلمي والتقني . فهذا الاتحاد السوفييتي كان قد تقدم مثل هذا التقدم، بل كان سابقاً للغرب الديمقراطي في بعض المجالات رغم شنيع دكتاتوريته، وها هي الصين، وها هي كوريا الشمالية تتقدمان في هذه المجالات تقدماً يزعج الغرب أيما إزعاج .

وحياة الإباحية التي ندعى إليها الآن ليست من أسباب تقدم الأمم بل من أسباب هلاكها . لقد كانت الحضارة الإسلامية حضارة العصر حتى بداية القرن السادس عشر الميلادي، وكانت سابقة في كل مجال من مجالات العلم والتقنية كما يعترف بذلك الغربيون ولم تكن تبيع ما ندعى الآن إلى إباحته . والحضارة الغربية نفسها لم تكن في بداية تقدمها المادي والعلمي تبيع ما تبيحه الآن؛ فلم تكن هذه الإباحية من أسباب تقدمها، بل هي من علامات تدهورها كما يعترف بذلك كثير من عقلائها .

وفصل الدين عن الدولة ليس شرطاً في هذا التقدم كما يشهد بذلك تاريخ الحضارة الإسلامية التي كان الدين جوهرها وكان السبب الأساس لقوتها . نعم! إن الدين يكون عائقاً حين يكون ديناً يحول دون الأخذ بالأسباب الموضوعية للتقدم المادي . وكما يكون الدين عائقاً يمكن أن يكون غيره من الأفكار والمعتقدات عائقاً أيضاً .

ولكن إذا لم يكن الدين الحق عائقاً فهو أيضاً ليس شرطاً ضرورياً للتقدم المادي! ولو كان الأمر كذلك لما تقدمت مثل هذا التقدم دولة كافرة . لكننا نشاهد

في واقعنا، ونعرف من تاريخ عالمنا، ونقرأ في كتاب ربنا ما يدلنا على غير ذلك .  
﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي  
الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ .

[الفجر: ٦ - ١٠] .

بل إن العدل ليس شرطاً في مثل هذا التقدم؛ فالحضارة الفرعونية ازدهرت  
بتسخيرها لبني إسرائيل حتى أنقذهم منها نبي الله موسى عليه السلام .

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٤٧﴾ طه: ٤٧﴾ .

والدول الأوروبية استعانت على تقدمها المادي باستعمار الشعوب واستغلال  
خيراتها، والولايات المتحدة استعانت على ذلك باصطياد البشر من أفريقيا  
واستعبادهم وتسخيرهم .

وما يقال عن الديمقراطية يقال عن حرية التعبير، وإنصاف المرأة . إن كل هذه  
وغيرها أمور حسنة في نفسها ومساعدة على الحياة الطيبة لكنها ليست شرطاً في  
الازدهار المادي كما يشهد بذلك تاريخ الدول الغربية نفسها . لقد بدأت ثورتها  
الصناعية ولم تكن تعطي المرأة ما تعدّه الآن من حقوق لها لازمة للتقدم  
وللحدثة؛ فلم يكن لها حتى حق الانتخاب .

إن للتقدم المادي - كما لكل أمر حسي - أسباباً من أخذ بها آتته أكلها براً أو  
فاجراً، عادلاً كان أم ظالماً . فمن أكل الطعام المناسب شبع حتى لو كان طعامه  
مسروقاً، ومن جامع امرأة قد ينجب حتى لو كان جماعاً سفاحاً، ومن زرع فقد  
يحصد حتى لو كان في أرض مغصوبة . إن الله - تعالى - لم يجعل الاستقامة  
شرطاً في التمتع بخيرات الدنيا :

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ  
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾  
البقرة: ١٢٦﴾ .

أراد إبراهيم - عليه السلام - أن يحصر الرزق بثمرات البلد الحرام في المؤمنين ؛ لكن الله - تعالى - أخبره أنه ينعم بها حتى على الكافرين ؛ ثم يذيقهم العذاب الأليم ؛ ويؤكد هذا قوله - تعالى - : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٢] .

فالطيبات من الرزق هي للمؤمن والكافر في هذه الحياة الدنيا ، ولا تكون خالصة محضة للمؤمنين إلا في الدار الآخرة .

قلت : إن للتقدم المادي أسباباً ، وأقول : إن من أول ما يذكر من هذه الأسباب الاستقرار السياسي ؛ فإذا لم تكن الأمة مجتمعة ، ولم تكن مستقرة فأنى لها أن تنجح في إقامة مشروعات تعليمية واقتصادية طويلة المدى ؟ والعالم العربي لم يذق طعم الاستقرار السياسي إلا في فترات متباعدة هنا وهناك . وكان من أهم أسباب ذلك أن كثيراً من أبناء الطبقة المثقفة المؤهلة للحكم فيه كانت طبقة قد ابتعدت عن دينها وتقمصت قيم الحضارة الغربية ، وظنت كما ظن أصحاب تلك الحضارة أن التقدم لا يكون إلا بتقليد الغرب ، فراحوا يقلدونه - بل ويفرضون على الأمة تقليده - في فكره العلماني ، وفي عاداته وتقاليده الاجتماعية ، وجعلوا هذا وما يزالون يجعلونه رسالتهم الكبرى التي يصالحون عليها ويعادون . وكان ممن عادوا إخوانهم المستمسكين بدينهم الذين يرون - على العكس منهم - أن نهضتنا لا تكون إلا على أساس من ديننا . بهذا انقسم المجتمع وفقد الاستقرار السياسي اللازم للتطور المادي . فالعلمانيون كانوا إذن هم سبب تمزق العالم العربي ، ومن ثم سبب تخلفه المادي . وكان الغرب وراءهم وعوناً لهم بدعايته وماله وقوته في كل ما يدعون إليه . واليوم تريد أمريكا أن تعاد المعركة بين الفريقين ، وبشكل أشرس ؛ إذ المطلوب من العلمانيين هذه المرة ليس فصل الإسلام عن الدولة فحسب ، بل إعادة تفسيره بحيث يكون متناسباً مع الفكر الغربي ، والمصالح الغربية . أليس هذا علاجاً بالتبي كانت هي الداء ؟

وإذا كان الاستقرار السياسي شرطاً ضرورياً لنيل القوة المادية فإنه ليس بالشرط الكافي، بل لا بد أن تتحقق معه شروط أخرى. لا بد للأمة التي تريد أن تخطو في طريق هذا التقدم المادي أن تعرف معالم هذا الطريق فلا توفك عنه بمظاهر كاذبة لا علاقة لها به. وقد كان من أسباب تقدم الاتحاد السوفيتي إدراكه لهذه الحقيقة. عرف - في ضوء معتقداته - ماذا يأخذ من الغرب الرأسمالي وماذا يدع. كان يركز على ترجمة العلوم، وعلى تبادل التقنيات، وكان يتعد كل البعد عن آداب الغرب الرأسمالي وفلسفاته ونظرياته السياسية والاقتصادية وفنونه وأفلامه ومسارحه وموسيقاه وأنواع رقصه. أذكر أننا زرنا دولة تشيكوسلوفاكيا ونحن طلاب بجامعة الخرطوم فوجدنا بعض الناس هنالك مستعدين لأن يعطوك ما شئت من مبالغ مقابل أسطوانة فيها موسيقى الروك أند رول التي كانت ذائعة الصيت آنذاك. لكن كل هذا الذي كان ممنوعاً في البلاد الشيوعية كان متوفراً في بلادنا ولم يساعد على تقدمنا.

قلت: إن الدين ليس بشرط في التقدم المادي، لكنني أبادر فأقول: إنه وإن لم يكن شرطاً ضرورياً إلا أنه - بلا ريب - شرط كاف. أعني أن الأمة قد تكون قوية وإن لم تكن على دين صحيح، لكنها تكون حتماً قوية ومنتصرة إذا كانت على دين صحيح.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦].

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ ١٠ ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ ١١ ﴿وَيُمَدِّدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠ - ١٤].

وأبادر فأقول ثانياً: إن الدين إذا لم يكن شرطاً ضرورياً في نيل القوة المادية

فإنه شرط ضروري لبقائها ودوامها . فالنعمة لا تدوم على مجتمع كافر إذا هو لم يرجع إلى الحق . فإرم لم ينفعها عمادها ، وثمرود لم ينفعها جوبها الصخر بالواد ، وفرعون لم تنفعه أوتاده ؛ حين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد ، بل صب عليهم ربك سوط عذاب ، وهو - سبحانه - صابيه على كل أمة ترتكب ما ارتكبوا .

والنعمة لا تدوم حتى لمجتمع مسلم إذا هو استحدث نوعاً من الجحود ، بل إن سلبها منه يكون بقدر جحوده . وهذا يعني أن الله - تعالى - قد يعطي مجتمعاً كافراً لم يمتحن من أسباب القوة المادية ما لا يعطي مجتمعاً مسلماً امتحن فسقط سقوطاً كاملاً بالنكوص إلى الكفر ، أو سقوطاً جزئياً بترك بعض ما يعلم أن الله افترض عليه .

ولكن حتى حين يعطي الله - تعالى - المجتمع الكافر - بل والفرد الكافر - من النعم المادية ما يعطيه ، فإنه يحرمه من كمال الاستمتاع بها ؛ لأن كمال الاستمتاع بها لا يتأتى إلا مع شكر المنعم بها . وأما بغير هذا الشكر فهي قمينة بأن تصاحبها منغصات لا يطيب العيش معها .

وعليه : فإذا أردنا أن نحقق لمجتمعاتنا تقدماً اقتصادياً وعلمياً وتقنياً ، فلنكن صفاً واحداً يجمعه الاستمسك بالدين الحق ، ثم بكل ما في تراثنا وتجاربنا وتجارب غيرنا من حق . وإذا كنا صفاً واحداً متماسكاً فلن يعجزنا التواصي على نظام سياسي يحقق لنا الاستقرار ؛ وإذا ما تحقق الاستقرار ، فآنذاك نبدأ في الأخذ بالأسباب التي تحقق القوة والأسباب التي تديمها . لا بد من الأمرين معاً . إن التقدم الحق لا يقوم إلا على هذين الجناحين .

وما أقوله ليس دعوة إلى البداية من الصفر ؛ فقد سارت كثير من دولنا رغم العقبات في هذا الطريق ؛ فنحن إنما نؤكد هنا ضرورة السير في الطريق الصحيح ، وندعم السائرين فيه ، وندعو غيرهم إلى سلوك طريقهم .

(٦)

## سياسة التناقضات المستعنة

(البيان ١٨٦ - صفر ١٤٢٤ هـ - إبريل ٢٠٠٣ م)

ما جريمة العراق التي ستعاقبه عليها الولايات المتحدة بحرب ربما أزهرت آلاف النفوس من العراقيين، وشردت آلافاً أخرى، وأعاققت آلافاً غيرها، وخربت البلاد، وكلفت الولايات المتحدة بلايين الدولارات، وذهب ضحيتها العشرات إن لم تكن الآلاف من الجنود الأمريكيين، ثم ربما كان من آثارها تلويث للأجواء يتضرر منه البشر من كان منهم قريباً من العراق ومن كان قاصياً عنه؟

ما الجريمة التي تستدعي هذا العقاب البالغ التكاليف؟ إنها تهمة امتلاكه لما يسمى بأسلحة الدمار الشامل. العراق ينفي هذه التهمة. لكن الدولة التي تريد أن تخوض تلك الحرب الضروس تملك من أسلحة الدمار الشامل ما يكفي كما يقولون لتحطيم الكرة الأرضية كلها.

وحليفاتها في تلك الحرب - بريطانيا - تملك منها الشيء الكثير، ومحرضتها على الحرب - إسرائيل - تملك عدداً من القنابل النووية؛ فما الذي جعل امتلاكهم لها حلالاً وللعراق وغيرها من الدول العربية حراماً وإجراماً؟

وإذا كانت العراق تنفي امتلاكها لمثل تلك الأسلحة، فإن دولاً أخرى وصفت بأنها من محور الشر تعترف بأنها تملكها، بل وأنها ستطورها. وإذا كانت العراق قد سمحت لمفتشي الأمم المتحدة بدخول أراضيها، وولوج كل مرفق فيها، فإن كوريا الشمالية قد طردتهم شر طردة، وأعلنت ذلك على الملأ؛ فما الذي جعل العراق خطراً داهماً ولم يجعل كوريا كذلك؟

وإذا كانت جريمة العراق أنها لم تنصع لقرارات الأمم المتحدة، فإن الدولة التي تريد معاقبتها على ذلك تقدم قرارات مجالسها التشريعية على كل قرارات

الهيئات الدولية، وتحول دون معاقبة إسرائيل حين تخرج على تلك القرارات . بل إن الدولة التي تريد معاقبة العراق على عدم انصياعها لأوامر الأمم المتحدة، تعلن أنها ستخوض حربها مع العراق رضىت الأمم المتحدة أم غضبت . والمسؤولون فيها يتكلمون عن الأمم المتحدة بكثير من التعالي، ويأمرونها بأن تفعل كذا وكذا، وإلا كانت قد فشلت في أداء مهمتها؛ حتى إنك لا تدري: أعن الأمم المتحدة يتحدثون، أم عن مدرسة ثانوية في قرية من قراهم؟

وإذا كانت أسلحة الدمار الشامل أول ما تكون خطراً على الدول المجاورة لها، لا على بريطانيا وأمريكا التي تسعى لحربها وعقابها، والتي تبعد آلاف الأميال عنها، فإن هذه الدول المجاورة مجمعة على رفضها للحرب؛ فلماذا لا يستمع لرأيها؟

وإذا كان الغرض من الحرب هو تخليص الشعب العراقي من دكتاتورية غاشمة؛ فما دكتاتوريته بالدكتاتورية الوحيدة في العالم؛ فلماذا كانت هي الوحيدة التي تستحق أن تحارب؟

حكومات الولايات المتحدة وبريطانيا حكومات ديمقراطية، والديمقراطية هي حكم الشعب، أو هي في الواقع حكم من تختاره أغلبية من شاركوا في الانتخابات ممن تحق لهم المشاركة . لكن الذين يعترضون على الحرب الآن في كل من الدولتين هم - بحسب الاستطلاعات - أكثر عدداً من الذين صوتوا لكل من الزعيمين الأمريكي والبريطاني ومكنوهما من حكم بلادهم . لكن كلاً من الزعيمين الآن يضرب برأي هذه الأغلبية عرض الحائط، ويمضي لا يلوي على شيء في طريقه إلى الحرب . وكذلك تفعل الدول الديمقراطية المؤيدة للحرب؛ حتى إن مراسلاً لمحطة الـ (بي . بي . سي) قال إنه تجول في شوارع بلدان أوروبا الوسطى فالتقى بالكبار والصغار والرجال والنساء باحثاً عن شخص واحد مؤيد للحرب فلم يجده! بل وجد الناس معارضين للحرب قائلين إنها حرب من أجل



البتروول . لكن حكومات هذه الشعوب كانت من أول من أعلن تأييده للولايات المتحدة .

وأيضاً إذا كانت الديمقراطية هي حكم الشعب ، فلماذا لا يُستمع إلى الشعوب العربية التي يهتمها أمر العراق أكثر مما يهتم غيرها؟ وقد قالت هذه الشعوب وقال حكامها إنهم لا يريدون الحرب ، وأنهم يعدونها اعتداءً ، وأن آثارها ستكون ضارة ضرراً بليغاً بالمنطقة كلها . ولماذا لا يستمع إلى رأي الشعوب الأوروبية والأسترالية والنيوزيلندية وغيرها من شعوب العالم التي خرجت في مظاهرات تقدر بالملايين معترضة على خوض مغامرة الحرب ، خائفة من نتائجها؟ أم أن الديمقراطية إنما يلتزم بها إذا كانت موافقة لمعتقدات الحاكم ؛ فإذا هي خالفها تحولت إلى دكتاتورية لا تلقي لآراء الشعوب بالاً مهما كثر عددهم ، ومهما كان الأمر مهماً لهم؟

ومع هذا الخروج على مبدأ الديمقراطية تزعم لنا الدول التي توقد نار الحرب أنها إنما تفعل هذا لنشر الديمقراطية وتحقيق الحرية!

إن الباطل لجلج ؛ وهذا التناقض يدل على أن الأهداف المعلنة لحرب العراق ما هي بالأهداف الحقيقية .

ما الذي يدعو الحكومات الغربية المصرة على الحرب للوقوع في مثل هذا التناقض؟ ما الذي يدعوها لأن تخالف رأي شعوبها وتخسر من كانوا يعدون من أصدقائها؟ ما الذي يدعوها لأن تصرف الأموال الباهظة وتضحى بالنفوس الغالية؟ إنه لا يمكن أن يكون مجرد حرص على إزاحة دكتاتور عن كرسي حكمه ، ولا يمكن أن يكون هلعاً من أسلحة دمار شامل - على فرض وجودها - لا تأثير كبير لها على الدول الغربية . لا بد أن يكون إذن شيئاً تراه هذه الحكومات أمراً جلاً مههدداً لاستمرار ثقافتها وحضارتها الغربية ، لكنه مع ذلك أمر لا تستطيع أن تصرح به ؛ لأنه من الصعب عليها أن تقنع شعوبها به ، ولأنه ربما

كان منطلقاً من موقف اعتقادي لا تشاركها جماهيرها فيه، ولأنه يتناقض مع قيم طالما رُبِّيَ الناس في الغرب الحديث عليها، ولا سيما في أيام الحرب الباردة، لإظهار تفوق الحضارة الديمقراطية الليبرالية الرأسمالية على الأيديولوجية الشيوعية. كيف تتخلى هذه الجماهير عن قيم قيل لها إنها لب حضارتها وسر تفوقها الخلفي؟

ما هذا الأمر الجلل الذي يدعو حكام الدول الغربية وبعض مناصريهم من قادة فكرهم إلى الخروج على هذه القيم التي عاشوا عليها سنين طويلة من حياتهم الحديثة التي أعقبت الحركة الاستعمارية؟

لا بد أن يكون الذي سبب كل هذا الخوف وسوغ تلك التناقضات والتضحيات أمراً لا تقاومه أو تقف في طريقه قوة السلاح المادي مهما عظمت. إنه أمر يُخشى أن يدخل في قلوب كثير من الأفراد فيجعل منهم أفراداً آخرين لا صلة لهم بالحضارة الغربية كما عرفت حتى الآن.

فما هو يا ترى هذا الشيء؟

أترك أمر تحديده لفطنة القراء الكرام.

\* \* \*

(٧)

## يريدوننا غنماً..هم رعاتها..وهيها

(البيان ١٨٧ - ربيع أول ١٤٢٤ هـ - مايو ٢٠٠٣ م)

«سنوفر لكم الطعام والشراب والدواء . ستنعمون بعائدات نفطكم . ستكونون أحراراً في بلادكم . ستكون هنالك ديمقراطية . . . . .» .

هذا الذي يبشر به أئمة الاحتلال لشعب العراق ، ومن ورائه كل شعب عربي وغير عربي يريدون تسخيرها لما يسمونه بمصلحتهم الوطنية .

ما العيب - قد يقال - في أن ينعم الناس بالطعام والشراب والكساء والدواء؟ لا عيب إلا إذا كان هذا على حساب كرامتهم . وقديماً قال الشاعر في بيت عده بعضهم أهجى بيت في الشعر العربي :

دع المكارم لا ترحل لبغيته      واقعد؛ فإنك أنت الطاعم الكاسي

فأئمة البغي والاحتلال يريدون لشعب العراق ولكل شعب عربي أن يكون قطعاً من الغنم يأكل ويشرب ويدأوى؛ لكنه لا يحمل عصا ولا يصد عدواً . إنما الذي يحمل العصا هو سيده؛ فبها يهش عليه ويسخره ، وبها يحد له الحمى الذي لا يتجاوزه . في حدود هذا الحمى تتمتع الغنم بحرية الأكل والشرب والثغاء والنزول والتوالد . نعم! سيترك لها راعيها شيئاً من حليبها لترضع به أولادها وليصرف منه على طعامها وشرابها ، وليأخذ سيدها النصيب الأكبر منه ليصرفه على طعامه هو وشرابه وسائر ملذاته ، بل وسلاحه الذي به يسوقها ويستعبدتها .

ربما صدق المحتلون في توفير ما وعدوا بتوفيره ، وربما زادوا عليه فاستجلبوا للعراق كل ما في بلادهم من أنواع الملذات : أسواق كبرى تعرض فيها كل ما أنتجته مصانعهم ، وشركات لكل أنواع السيارات وسائر المراكب ، دور سينما ، حانات ومراقص ونواد ليلية ، قنوات لكل أنواع اللهو من أفلام قدرة وأغان

خليعة ودعايات رخيصة وتسويق للفكر الغربي والحضارة الغربية . لكن الذي لن يفعلوه ، والذي عدوه خطيئة صدام الكبرى هو أن تكون بلادهم قادرة على أن تتطور صناعياً ولا سيما في مجال الأسلحة . إنهم لا يريدون أن تخلو العراق - ويخلو كل بلد عربي وغير عربي - مما أسموه بأسلحة الدمار الشامل ، بل إنهم لحريصون أن يخلو حتى من المقدرة على إنتاج السلاح مدمراً تدميراً شاملاً أو غير شامل . ولكي يخلو من هذه المقدرة فلا بد أن يخلو من العلماء الذين يملكون هذه المقدرة . سيخلو العراق كما سترون من هؤلاء العلماء ، ربما يقتل بعضهم أو سجنه ، ولكن يقيناً بإغراء آخرين بالمال الوفير لكي يهاجروا إلى أرض محرريهم ، ويشاركوا في صناعة الأسلحة لهم ، كما فعلوا مع كثير من علماء الاتحاد السوفيتي .

لماذا اختاروا أرض العراق ليجعلوا من شعبها أول قطيع من أغنامهم (أهم أول قطيع؟)؟ اختاروها أولاً : لأنها أرض لبون لا بقاء لهم بغير حليبتها . وهذا أمر قد أصبح من البدهيات ؛ فلا نقضي فيه وقتاً . وأما ثانياً : فلأن في حكمها ضعفاً يجعل ذريعة استعباده باسم التحرر ذريعة مقبولة لشعبهم ولمن هو على شاكلتهم من غير شعبهم . لا زلت أذكر منظرأ شاهدته على التلفاز ألمني رغم أن الضحية فيه كانت حيواناً . رأيت وحشاً يشدد جرياً وراء قطيع من الغزلان ، وهي تعدو منه هرباً ؛ لكنه رأى في إحداها عرجاً أبطأ من جريها فركز عليها وترك بقية القطيع حتى أدركها فقتلها ومزقها . وقد كان في النظام العراقي عرج بين كان هو السبب الأساس في سرعة انهياره . كان نظاماً مبنياً على جرف هار ، هو شخص صدام ؛ فلما انهار الجرف انهار البناء كله . إن الأمة التي ترضى لنفسها أن تكون قطعاً من الأنعام يسوقه واحد منها ، لا تستعصي على أن يكون سائقها واحداً من غيرها . ومعاذ الله ان يكون شعب العراق كله كذلك . لكن داء هذه التبعية أصاب الجميع ، من كان راضياً به ومن لم يكن راضياً . فأول درس ينبغي لنا أن نعيه هو أن لا نكون قطعاً ولا شبه قطع لو احد منا . إنه لا بد لكل مجتمع ، مسلماً كان أو

كافراً، ديمقراطياً كان أو غير ديمقراطي، لا بد له من ولاية أمر يكونون مسؤولين عن إدارة شؤونه. لكن أن يكون الواحد منا مسؤولاً عن إدارة شؤونا شيء، وأن يجعل منا قطعاً يقضى أمرها وهي غائبة شيء آخر. هذا درس جعله ربنا أصلاً من أصول ديننا؛ فنحن لا نحكم برأي فلان وعلان وإن كثر عددهم، وإنما نحكم بكتاب ربنا الذي يخضع له حاكمنا كما نخضع له نحن المحكومين. وحاكمنا الذي يحكمنا بكتاب ربنا لا يستبد بالأمر من دوننا؛ لأن صفة التشاور في أمورنا من الخصائص المميزة لنا لا يكتمل بغيرها إسلامنا، مثلها في ذلك مثل الإيمان بالله والتوكل عليه وغيرها من الصفات التي تبينها الآية الكريمة:

﴿فَمَا أَوْتِيتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٣٦) ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ (٣٧) ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (٣٨) ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٦ - ٣٩].

تذكرت وأنا أشاهد على التلفاز كثرة صور الرئيس صدام وتماثيله، وأنا أسمع الناس يهتفون في كل مكان: بالروح بالدم نفديك يا صدام! تذكرت قول الله - تعالى - لرسوله ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]. ومع أنه لا دين إلا باتباع الرسول ﷺ لأنه: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، ومع أن حياة الرسول ﷺ كانت ضرورية لتربية جيل كالذي رباه، ومع أن حياة المسلمين بعده لم تكن مثلها في حياته، إلا أن الله - سبحانه - أراد أن يعلم المؤمنين أن كل هذا لا يعني ارتباط الدين بحياته ﷺ. ولم يكتف - سبحانه - بتقرير حقيقة موت الرسول هذه، بل أكدها بدرس عملي؛ وذلك أنه شاع يوم أحد أن النبي ﷺ قتل، بل إن أحد المشركين - واسمه ابن قميئة - بشر إخوانه الكفار بأنه هو الذي قتله، وإنما كان في الحقيقة قد ضربه فشجه. فلما شاع هذا الخبر الأليم ضعف بعض المسلمين، فأنزل الله - تعالى - على رسوله ﷺ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ

يَضُرُّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ [آل عمران : ١٤٤].

وكل فقد بعد فقد الرسول ﷺ يهون، ويمضي المسلمون في طريقهم يتقون ربهم حق تقاته ما استطاعوا. بهذا ينبغي أن يُذكر الناس، وعليه ينبغي أن يربوا، فلا يربطوا تمسكهم بدينهم وجهادهم في سبيل إعلاء كلمة ربهم بموت أحد ولا حياته، بل عليهم أن يسدوا كل الذرائع المؤدية إلى تعلق الدين بحياة الأشخاص مهما عظموا علماً وورعاً، أو حكماً عدلاً، أو شجاعة وبسالة.

وإنه لمن مقتضيات تمسكنا بديننا، وكوننا أمة ذات رسالة، أن نكون أمة قوية مرهوبة الجانب، لا نأكل ونتمتع كما تأكل الأنعام، ولا نكون غنماً تهش عليها وتوجهها أنى شاءت عصا الكافرين. لكن القوة المادية لها ثمن ينبغي أن نكون مستعدين لدفعه. يجب أن نربى على التضحية بكثير من الملذات، بل يجب أن نربى على الاقتناع بالكفاف، ثم نرصد ما تبقى من دخلنا القومي للأخذ بأسباب القوة المادية، من تأهيل علمي ولا سيما للنابعين من أبنائنا، ومن طرق أبواب الصناعة الثقيلة، ولا سيما صناعة الأسلحة. كيف تدافع عن نفسك، أم كيف لا تكون فتنة لعدوك، وأنت تعتمد عليه في أسلحتك التي بها تدافع عن نفسك؟ هذه هي الخطوة الأولى للسير في طريق القوة: عزيمة نجتمع عليها حكماً ومحكومين. أما تفاصيلها وكيفية تحقيقها، فيترك للمختصين منا، ولن تعجزنا بإذن الله تعالى. ومن سار على الدرب وصل.

لكن ينبغي أن لا يغيب عن بالنا أننا نريد أن نفعل كل هذا باعتبارنا مسلمين. وعليه فكما نسعى لامتلاك القوة المادية، فعلينا أن نجتهد في امتلاك القوة المعنوية: قوة العلم بالدين الحق، والاستمسك به، والدعوة إليه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فهذا هو سر قوتنا، وسبب دوام بقائنا، فإننا بفضل الله أمة لا تموت: كتابها محفوظ ذكراً، لا حفظاً متحفياً، ذكراً بحفظ لغته، وحفظ سنة نبيه، وحفظ العلماء العارفين به، المجددين له، الداعين إليه،

المجاهدين في سبيله . أما الأمم الكافرة فإنها تتنفس وتتففس ثم لا تلبث أن تُخرق وتسقط مهما كان لها من قوة مادية ، تخرقها وتسقطها ما ترتكب من فواحش وظلم واعتداء ، وما يملأ صدورها من غرور وحمية الجاهلية :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ [ الفجر : ٦ - ١٤ ] .

\* \* \*

(٨)

## أديمقراطية هذه.. أم أمريطانية؟

(البيان ١٨٩ - جمادى الأولى ١٤٢٤ هـ - يوليو ٢٠٠٣ م)

الديمقراطية - وتُتَظَق بالإنجليزية : دموكراسي - يقول مؤرخوها الغربيون إنها تتكون من كلمتين يونانيتين هما «ديموس» أي الشعب ، و «كراتوس» أي الحكم . أما الرئيس القذافي فله رأي آخر . . الديمقراطية في رأيه تتكون من كلمتين عربيتين هما : ديمة ، وكُرسي ؛ أي إن الديمقراطية هي النظام الذي يكون فيه الحاكم دائماً على الكرسي .

أما الأمريطانية - ونسميها بالإنجليزية أميريتانسي - فلك أن تفسرها تفسيراً غريباً ؛ فتقول إنها تتكون من ثلاث كلمات هي : أمريكا ، وبريطانيا ، والحكم . أو تفسرها تفسيراً قذافياً فتقول إنها تتكون من ثلاث كلمات هي : أمريكا ، وبريطانيا ، والكرسي . أي إن أمريكا أولاً ثم بريطانيا تريدان أن تكونا دائماً على كرسي الحكم . يتجلى ذلك أكثر ما يتجلى في الديمقراطية التي تقولان إنهما تريدانها للعراقيين . . وكذلك الحرية .

فالإدارة الأمريكية ، وأحياناً المسؤولون البريطانيون ، يصرحون ، وأحياناً يعبرون بلسان الحال عن أنه بعد أن تخلص العراقيون من حكم صدام الدكتاتوري قد صاروا أحراراً يختارون لبلدهم ما يشاؤون بالطرق الديمقراطية ؛ فلهم أن يختاروا الدستور الذي يرتضونه لبلادهم ، لكنه يجب أن يكون دستوراً يفصل الدين عن الدولة كما هو الحال في الدستور الأمريكي ، بل يجب أن يكون العراقيون وسائر العرب والمسلمين أكثر تطوراً من الغرب في مجال العلمانية ، فدستور الولايات المتحدة مثلاً قد اكتفى بفصل الدين عن الدولة ؛ بمعنى أنه ليس للدولة أن تؤسس أو تتبنى ديناً من الأديان ، ولا أن ترعى المؤسسات الدينية ، لكنه لا يمنع من أن تكون الدوافع السياسية دينية ، كما هو الحال في الموقف من



(إسرائيل). أما العراقيون - وسائر العرب والمسلمين - فيجب أن يذهبوا أبعد من ذلك، يجب أن يمنعوا حتى الدوافع الدينية، ويعاقبوا كل مسؤول أو حزب يُظهر مثل هذه الدوافع في أقواله أو أعماله، ويجب أن لا يكتفوا - كما اكتفت أمريكا - بعدم تبني المؤسسات الدينية وتركها حرة تتصرف كيف شاءت في حدود القانون، بل يجب أن تتأكد من أنها لا تعمل عملاً ينمي مثل تلك الدوافع الدينية التي تقود في النهاية إلى العمليات الإرهابية ولا سيما ضد (إسرائيل).

ويجب تبعاً لذلك أن لا تكون الحكومة حكومة دينية، ولا أن يسيطر عليها أو يؤثر فيها رجال الدين.

للعراقيين أن يسنّوا من القوانين ما شاؤوا، لكن بما أنهم عاشوا زماناً تحت وطأة قوانين غير ديمقراطية؛ فسننولي نحن لهم سن قوانين تتيح لهم الحرية ولا سيما حرية الممارسات الجنسية، فلا يُمنع مسلم، ذكراً كان أم أنثى، من أن يختار الصديق أو الزوج الذي يناسبه سواء كان من جنسه أو من الجنس الآخر، وسواء كان من دينه أو من دين آخر، بل لا تُمنع الممارسات الجنسية بين المتراضين، متزوجين كانوا أم غير متزوجين كما هو الحال عندنا.

سننشئ للعراق قضاء عادلاً يضمن رعاية كل هذه الحريات، ويتولى كذلك محاكمة من ساموا العراقيين الخسف إبان حكم صدام.

وللعراقيين أن يختاروا حكومتهم بالطريقة الديمقراطية شريطة أن يكون الحاكم الأعلى للبلاد رجلاً (أو امرأة) تختاره الولايات المتحدة ليعلمهم، ويتدرج بهم في سُلّم ممارسة الديمقراطية التي غابوا عنها سنين طويلة. كيف لا يكون للولايات المتحدة هذا الحق وهي التي أنفقت أموالها وضحت رجالها في سبيل تحرير الشعب العراقي من الحكم الصدّامي الاستبدادي؟

والعراقيون أحرار في أن يقيموا من العلاقات الدولية ما شاؤوا، لكن دولتهم يجب أن تكون دولة موالية للولايات المتحدة، كما يجب أن لا تكون معادية

للدولة الإسرائيلية، كيف لا وقد كان من دوافع شن الحرب على العراق الخوف من أن يكون نظامه مهتدداً لإسرائيل؟ أليس هذا بعض ما يقتضيه رد الجميل الذي أسدته أمريكا للعراق؟

ولهم أن يتصرفوا في ثروتهم البترولية كيف شاؤوا، لكن الولايات المتحدة قد تعاقدت قبل اختيارهم لحكومتهم مع بعض الشركات الأمريكية، وأوكلت إليها الإشراف على إنتاج البترول العراقي وتسويقه، فيجب أن يقرروا ما اختاره لهم محرروهم.

ولهم أن يشرفوا على إعادة تعمير بلادهم التي اقتضت حرب تحريرهم تدميرها، ولكن الولايات المتحدة قد اختارت لهم حتى قبل بدء الحرب شركات أمريكية مؤتمنة على أداء هذه المهمة، فيجب أن تستمر هي الأخرى في أداء عملها حتى بعد أن يختار العراقيون حكومتهم الديمقراطية.

وسيكون العراقيون أحراراً في اختيار المناهج التربوية التي يرونها مناسبة وصالحة لأولادهم، كما ستكون لهم حرية اختيار الفلسفة التربوية التي تناسبهم، لكن الولايات المتحدة قد كفتهم مؤونة هذا التعب، وستتولى هي إعداد هذه المناهج كما فعلت بالنسبة لأفغانستان، وستضمن لها أن تكون مبنية على فلسفة تزرع العلمانية في قلوب الدارسين، وتقيهم شر الفتن الطائفية والاختلافات الدينية، وستضمن لهم أن يتخرجوا بقلوب لا كراهية فيها ولا غضب على الغرب ولا على (إسرائيل) فإن الكراهية - حتى لمن تعده عدواً لها - هي شر ما تبثلى به أمة، اللهم إلا إذا كانت كراهية لدينها وتاريخها وتقاليدها التي كانت كلها سبباً في تأخرها.

ما أروع أن نرى الآلاف من العراقيين يتظاهرون في الشوارع في حرية كاملة لم تكن مكفولة لهم إبان الحكم الدكتاتوري، نعم! إن الكثيرين منهم يهتفون ضد الاحتلال، لكنهم ما كانوا ليستطيعوا أن يهتفوا مثل هذا الهتاف لولا ما أسموه

بالاحتلال ، ولذلك فسنعمل على استمرار هذا الذي هتفوا ضده لیتمكنوا من مثل هذا الهتاف .

ستكون الدولة العراقية الديمقراطية مثلاً يحتذى لبقية الدول العربية ؛ لأنها ستنفق أموالها على رفاهية شعبها فتعطي الأولوية لتوفير المواد الاستهلاكية ، ولا تبعثر ثروة البلاد في إعداد علماء ، ولا في إقامة صناعات ، ولا في امتلاك أسلحة تدمير شامل أو غير شامل ، إلا ما كان ضرورياً لمحاربة الإرهابيين الإسلاميين . وستكون بذلك دولة محبوبة لا خطر منها على جيرانها ولا على من كانوا بالأمس القريب أعداء لها . نعم ! إن (إسرائيل) تملك أسلحة يمكن تصنيفها بأسلحة دمار شامل ، لكنها محقة في امتلاك مثل هذه الأسلحة ؛ لأنها تعيش بين قوم أشرار ، ودول مارقة لا تألو جهداً في تهديدها ، أما هي فدولة متحضرة مسالمة ، ولا تملك على كل حال إلا أكثر من مئة قنبلة نووية .

مرحى مرحى للديمقراطية وللحرية ! وما أروعهما حين يكونان تحت سيطرة أمريكية بريطانية !

﴿يَخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [٩ - ١٠] في قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٩﴾

[ البقرة : ٩ - ١٠ ] .

﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [ المائدة : ٥٢ ] .

(٩)

## الحوار مجادلة جادة لا مDAHنة

(البيان ١٩٠ - جمادى الآخرة ١٤٢٤ هـ - أغسطس ٢٠٠٣ م)

في العالم اليوم دعوات كثيرة إلى الحوار: حوار بين الديانات ولا سيما النصرانية والإسلام، أو النصرانية واليهودية، وحوار بين أهل الديانات والمنكرين لها، وحوار بين الفرق الدينية داخل الدين الواحد، وحوار خاص بين الممتين إلى الوطن الواحد من كل تلك الأنواع.

والحوارات تتعدد بتعدد أغراضها؛ فمنها ما يكون هدف المحاور إقناع الآخر بأن اعتقاده أو رأيه أو موقفه هو الأحق بأن يتبع، ومنها ما يكون هدفه مجرد معرفة ما عنده كي لا يكون هنالك سوء تفاهم بأن ينسب إليه ما لا يرى أو يعتقد، ومنها ما يكون الغرض منه إمكانية الوصول إلى آراء أو أهداف مشتركة تساعد على التعايش والتعاون، وهكذا.

والمسلم يرى كل هذه أهدافاً مشروعة ولا يتردد في المشاركة فيها ما لم يتصل بها ما يجعل ضررها أكبر من نفعها.

لكن الحوار لا يكون ناجحاً ولا يحقق شيئاً من تلك الأهداف التي وصفناها بالمشروعة إلا إذا توفرت فيه بعض الشروط، وإلا إذا خلا من بعض المفسدات.

فشرطه الأول أن يكون المتحاورون صادقين مخلصين في الوصول إلى ما أعلنوا من أهداف، لا أن يكون الحوار مجرد وسيلة إلى أغراض أخرى يضممرها أحد المتحاورين أو جميعهم. من ذلك أن بعض إخواننا المسلمين اعترضوا على حوارات كانت تقام بين المسلمين وجماعات من الكاثوليك قُدر لي أن اشترك في واحدة منها أقيمت بأسبانيا. فلما سألناهم عن سر اعتراضهم أجابونا بأن الكاثوليك يستغلونها لأغراض تبشيرية بين بعض عوام المسلمين في بعض البلاد

الإسلامية النائية، فيطلعونهم على صور علماء المسلمين جالسين معهم، مبتسمين لهم، ليقولوا لهم إنه لا خلاف بيننا وبين المسلمين.

هنالك مشكلة في الحوار مع العلمانيين في العالم الإسلامي. العلمانيون، بل الملحدون في أوروبا يعلنون عن آرائهم بصراحة ويدافعون عنها. وإخوانهم في العالم الإسلامي يودون أن لو استطاعوا أن يفعلوا ذلك، لكنهم لا يستطيعون؛ لأن المجتمع لا يقبل مثل هذا التصريح بالكفر، وربما تعرض قائله للأذى. فماذا يفعلون؟ يلجؤون إلى النفاق: يتظاهر أحدهم بأنه مسلم ولو لم تكن في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، ويحاول أن يجد لكفره سنداً من الدين - وهيئات - فتأتي حججه المعلنة واهية لا تنطلي إلا على بعض الجهلاء أو ضعيفي الإيمان، لكن هؤلاء لا يفيدونه بشيء. أما طلاب العلم وصادقو الإيمان فيرون نفاقه في فلتات لسانه ويجزمون به ﴿فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَتَعَرَّفَتْهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]. قبل سنين تزيد عن الثلاثين أقامت منظمة باكستانية في لندن ليلة عن الرسول ﷺ دعوا إليها عدداً من الأفراد والمنظمات، وكنت من ضيوف الشرف فيها. جلست أستمع إلى المتحدثين؛ لأن مهمتي كانت أن أختتم بالتعليق على ما سمعت. تكلم أحدهم فشمت منه رائحة نتنة (هذا تعبير استعمله الأستاذ سيد قطب - عليه رحمة الله - حين استمع لأول مرة وفي منزله لكلمات من القصيمي). فلما جاء دوري علق على كلامه، فكأنما طعنته بسهم في قلبه. وقف محتجاً لكنه أُسكت. فلما انتهت الجلسة جاء يجادلني وحولنا عدد من الشباب، وبدأت الرائحة تزداد نتانة كلما توغلنا في النقاش حتى قال لي في النهاية: ما برهانك على وجود الله؟ قلت: عندي والله برهان لكنني لن أذكره لك؛ لأنك جبان تظاهرت بالإسلام وجئت لتتحدث في ليلة عن الرسول ﷺ، ولو أنك قلت لي منذ البداية إنك ملحد لكنت جادلتك على هذا الأساس.

الحوار العلني مع العلمانيين من منكري الدين لا فائدة إذن فيه إلا إذا كان القصد منه كشفهم وإحراجهم بإخراج مكنون معتقدهم. أما إذا كان القصد

هدايتهم فالأحسن أن يدعوا إلى حوارات خاصة يستطيعون أن يصرحوا فيها بحقيقة ما يعتقدون . لقد جربنا هذا حتى مع الملحدين ، وجربه من سبقنا من علماء المسلمين . فشيخ الإسلام ابن تيمية مثلاً يذكر أنه كان يأتيه جماعة من أهل الأهواء ويطلبون منه مجادلتهم بهذه الطريقة ، يشترطون عليه أن لا يستند في جداله معهم على النصوص ، بل يحاجّهم بالعقل وحده . وعلل الشيخ قبوله لشرطهم بأنهم قوم سلّموا بأصول ظنوها عقلية ؛ فمهما أتيتهم بحجج عقلية تخالفها لم يقتنعوا ؛ لأنهم - وهم صادقون في إيمانهم بالإسلام - ينزهون الله - تعالى - أن يقول كلاماً مخالفاً للعقل . يرى ابن تيمية أن هذا الاعتقاد بمثابة المرض ، فيجب أن تشفيهم منه أولاً بالأدلة العقلية على بطلانه فيتهيؤون بعد ذلك لقبول النصوص .

فشرط الحوار الثاني إذن أن يستند إلى معايير يؤمن بها الطرفان ؛ فإذا كان حواراً بين مؤمنين وملحدين كان المعيار هو العقل والحقائق العلمية المتفق على التسليم بها ، وإذا كان بين مؤمنين بوجود الخالق أضيف هذا إلى تلك المعايير ، وأضيف إليه أيضاً المحاكمة إلى حقائق دينية يؤمن بها كل من الفريقين . وإذا كان بين منتسبين إلى دين واحد كالإسلام مثلاً كانت المعايير مراجع دينهم الذي به يؤمنون .

هذا هو الحوار كما يعرفه ويدعو إليه كل العقلاء من المفكرين من أهل الأديان وغير الأديان . لكن بعض الناس في بلادنا يتصور الحوار على غير هذه الصورة العقلانية المثمرة . يراه بعضهم مداهنة ، والله - تعالى - يقول : ﴿ وَذُوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [القلم : ٩] . وكلمة يدهن كلمة معبرة جداً في تصوير هذا الموقف ؛ لأنها مأخوذة من الدهن ، فهي عكس الثبات والاستمساك . يظنون - بل يعتقدون - أن من شرط الحوار مع الآخر أن تعترف بأنه على حق أيضاً . قال لي أحدهم هذا فقلت له : لم أحاوره إذن ؟ ألكي أزحزحه عن الحق وأجره إلى الباطل ؟ إنك لا تحاور إنساناً إلا إذا كنت معه مختلفاً . هذا هو الأمر الطبيعي حتى بين المنتسبين

إلى الدين الواحد . قال - تعالى - : ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء : ٥٩] .

فالرد إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ إنما يكون في حال التنازع ؛ أما إذا لم يتنازعا فلا يحتاجون إلى هذا الرد ، بل إن عدم تنازع علماء المسلمين دليل على أنهم على حق . ولذلك استدل العلماء بهذه الآية الكريمة على حجية الإجماع .

ومن أشكال المداهنة أيضاً اللجوء إلى دعوى نسبية الحق . فخصمك المخالف لك على حق من وجهة نظره ، وأنت على حق من وجهة نظرك ؛ فلا داعي إذن لأن تخطئه أو تجهله . هذه دعوى باطلة ، وهي فوق ذلك مضرة بالمجتمع غاية الضرر . ثم هي بعد ذلك مما لا يمكن لأحد أن يلتزم به . سمعت أحدهم قريباً في ندوة تلفازية يقول إنه إذا قال لي أحد : أريد أن أبين لك الحق ، أقول له : لا داعي للحوار إذن . هيأت نفسي للاتصال لأقول له : لكنك أنت الآن بقولك هذا تريد أن تبين لنا ما تراه حقاً بالنسبة للحوار ؛ وإلا فلماذا قلت ما قلت ؟

وقد وجدت شبهة نسبية الحق هذه مؤثرة حتى في بعض الشباب المتدينين . قال لي أحدهم : إذا كنا نحن نرى أنفسنا على حق فهم أيضاً يرون أنهم على حق . قلت له : وماذا في هذا؟ إن الحق واحد ، سواء كان حقاً متعلقاً بدين أو بدنيا ؛ لأنه وصف لواقع ، ولا يمكن أن يكون الواقع على صفتين متضادتين . فإذا اختلفنا اختلاف تضاد ، فيستحيل أن يكون كلانا على حق . هب أن إنساناً قال إنه ما يزال يرى أن الأرض مسطحة وأنت تعتقد أنها مكورة . ماذا تقول له ؟ هل تقول له : أنت على حق من وجهة نظرك ، وأنا على حق من وجهة نظري ؟ إن الاختلاف في الحق لا يعني نسبته . إن صاحب الحق لا بد أن يكون لديه دليل على صحة دعواه ؛ فمن حقه أن يقول لمخالفه إنني لا أطلب منك إلا أن تكون عاقلاً تخضع للدليل إذا تبين لك . ما أجمل وأصدق ما قاله الإمام الشاطبي في موافقاته : « الشريعة كلها ترجع إلى قول واحد في فروعها وإن كثر الخلاف ، كما

أنها في أصولها كذلك . ولا يصلح فيها غير ذلك . والدليل على ذلك أمور<sup>(١)</sup> .

ومن أشكال المداهنة أن يكون الحوار بين أبناء الوطن الواحد دعوة إلى العلمانية . كيف؟ يقولون : إذا كنا جميعاً أبناء وطن واحد فيجب أن تكون العلاقة الأساس بيننا هي علاقة المواطنة التي تفترض أن كل مواطن مخلص في حرصه على مصلحة وطنه ، وعليه يكون الحوار بيننا حواراً بين مواطنين متساوين ؛ لا العلاقة الدينية التي تميز بين المواطنين . وهذه مغالطة سخيفة ؛ لأن تصور الإنسان لما يعده مصلحة له أو لبلده تؤثر فيه معتقداته دينية كانت أم غير دينية . فإذا كان المواطن شيعياً مثلاً فقد يكون مخلصاً في اعتقاده بأن النظام الشيعي هو الذي يحقق مصلحة بلده ، ولذلك يرى أن الذين يقفون في طريق تحقيقها هم أعداء للوطن . وكذلك قل عمن يعتقد في العلمانية الغربية ، أو من يعتقد في الإسلام . إنهم جميعاً مواطنون لكن معتقداتهم مختلفة إلى درجة أن ما يراه أحدهم مصلحة في بعض جوانب الحياة يراه الآخر أكبر خطر على الوطن . رأيت أحد إخواننا يستغرب أسفاً لموقف ينم عن شيء من خيانة وقفه بعض العرب من قضية عربية كبيرة ، فقلت له : هوّن عليك ولا تستغربن . إن غزوة بدر الكبرى لم تكن بين عرب ويونان ، إنما كانت بين عرب أقحاح أقارب ينتمون إلى أشرف قبيلة عربية ، ولم يكن اختلافهم في أن بعضهم كان محباً لوطنه والآخر كاره له ، إنما كان الخلاف بينهم في الحق والباطل والخير والشر . وكذلك سيظل إلى يوم القيامة ، سواء كان الناس أبناء وطن واحد أو أوطان مختلفة .

\* \* \*

(١) ص ٥٩ من الجزء الخامس ، تحقيق أبي عبيدة ، دار ابن عفان ، ١٤١٧ هـ .



(١٠)

## المفهوم الغربي للوهابية

(البيان ١٩١- رجب ١٤٢٤ هـ - سبتمبر ٢٠٠٣ م)

إذا كنت تظن أن الوهابية التي يتحدث عنها السياسيون والكتاب الغربيون محصورة فيما دعا إليه الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتبه وأحاديثه ودروسه، أو أن الوهابيين هم فقط أولئك الذين وافقوا الشيخ فيما دعا إليه، فأنت مخطئ. الوهابية عند هؤلاء هي وصف لكل أخذ لدين الإسلام مأخذ الجد؛ حتى لو كان الأخذ إنساناً لم يقرأ للشيخ حرفاً واحداً ولم يتسم باسمه ولا كان موافقاً له في بعض ما قال؛ بل إنها وصف لكل من يأخذ بجذ بعض ما أجمع عليه المسلمون حتى لو كان ممارساً لبعض البدع، أو مؤمناً ببعض الخرافات. الوهابية عند هؤلاء مرادفة للأصولية التي هي الإيمان بأن القرآن كله كلام الله تعالى، وأن الالتزام به واجب على كل مسلم. الوهابي هو المسلم الذي يواظب على الصلوات الخمس ويصوم رمضان ويؤدي الزكاة ويحج إن استطاع إلى بيت الله الحرام. إنه المسلم الذي لا يشرب خمرًا ولا يتناول ربا ولا يرى اختلاط الرجال بالنساء، ولا يؤمن بقيم الحضارة الغربية المخالفة للإسلام. المسلم الوهابي هو الذي يرى أن دينه هو الحق وأنه يحثه على دعوة الناس إلى الإسلام. الوهابي باختصار هو كل مسلم يحاول الالتزام بتعاليم دينه حتى لو كان يعيش في البلاد الغربية.

ويبدو أن الذي اقترح على السياسيين هذه التسمية لكل مسلم ملتزم بدينه بعض المختصين في الدراسات الإسلامية. وربما كان اقتراحهم لها لأسباب سياسية. ربما يكون قد قال لهم إنكم ستستفزون مشاعر المسلمين إذا صرحتم لهم بأنكم لا تريدونهم أن يلتزموا بكتاب ربهم ولا بسنة نبيهم، ولا أن يأخذوا شيئاً من دينهم بقوة؛ فامكروا عليهم بالحديث عن الوهابية بدلاً من الحديث عن الإسلام أو الكتاب والسنة؛ لأن في العالم الإسلامي أناساً كثيراً لهم مشكلة مع

الوهابية، ولأنهم قد أثاروا حولها تهماً، وألصقوا بها تعاليم نحن نعلم أنه لا علاقة لكثير منها بها. ومع أننا لا نتفق مع هؤلاء في كل الأسباب التي دعتهم إلى معاداة الوهابية؛ فإن موقفهم المعادي لها مما يمكن أن يساعد على تحقيق مآربنا وخدمة مصالحنا.

من المسلم غير الوهابي إذن؟ هو المسلم الذي يفهم القرآن فهمهم لكتبهم، ويطبق دينه تطبيقهم لدينهم، ولا يعترض على شيء من ثقافتهم، ولا يدعو إلى مناهضة شيء من سياساتهم حتى لو كان يراها ظالمة وضارة ببلده، ولا ينسب بنت شفة عن كلمة اسمها الجهاد. إن كل من يفعل هذا عدو لهم؛ لأنه يعرقل ما يعدونه مصلحة وطنية لهم.

ما معنى أن يفهم دينه فهمهم لدينهم؟ لعل أحسن جواب على هذا السؤال كلمة قالها رجل تابع للكنيسة الأسكوبيلية (وهي كنيسة أمريكية تابعة للكنيسة الإنجليزية). هذا قس اسمه (روبنسون) يستعلن بشذوذه الجنسي، بل يأتي إلى بعض الاجتماعات الدينية إلى جنب «صاحبه» الذي يفجر به والإعاذة بالله. لم ترَ الكنيسة رغم هذا كله بأساً من انتخابه لمنصب عال فيها هو منصب الأسقف. انتخبته أعلى هيئة فيها بأغلبية ستين عضواً إلى أربعين تقريباً. في مؤتمر صحفي بعد فوزه اعترف هذا الأسقف بأن معارضي انتخابه كانوا على حق في قولهم بأن الشذوذ الجنسي أمر مخالف لتعاليم الكنيسة، ثم مضى يقول:

(أن تقول ببساطة إنه مخالف للتقاليد وتعاليم الكنيسة وللكتاب المقدس لا يعني بالضرورة أنه خطأ. إننا نعبد إلهاً حياً، وهذا الإله هو الذي يقودنا إلى الحقيقة).

ذكرت إخواننا المصلين في خطبة جمعة خطبتها بعد هذا الخبر<sup>(١)</sup>، بحديث الرسول ﷺ:

(١) انظرها في موقعنا على الإنترنت [jaafaridris.com](http://jaafaridris.com).

«لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه» .

قصدت بهذا أن لا نستغرب إذا جاءنا ممن يدعي الإسلام من يقول كلاماً مثل هذا أو قريباً منه ، كأن يقول مثلاً :

إن كون قول أو فعل ما مخالف لما كان عليه المسلمون ، ومخالف للأحاديث النبوية ، ومخالف لآيات القرآن الكريم لا يعني بالضرورة أنه خطأ . أقول إن مثل هذا هو المسلم الذي يرضى عنه بعض هؤلاء الذين يتحدثون عن التشدد وعن الأصولية وعن الوهابية . ألم يقل الله - تعالى - لنبيه ﷺ : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلاً ﴾ [الإسراء: ٧٣] .

ثم ألم يقل الله - تعالى - عن بعض اليهود والنصارى المصرين على كفرهم : ﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٢٠] ؟

ويبدو الآن أن اتباع ملتهم ليس محصوراً في اعتقاد ما يعتقدون ، ولكنه يشمل طريقتهم في فهم الدين وتحريفه . فكل من يتبع منهجهم هذا في تحريف دين الإسلام وعدم أخذه بقوة كما أمر الله - سبحانه وتعالى - فهو ممن يرضون عنه .

يظهر عدم رضاهم عمن لا يأخذ بمنهجهم في فهم الدين الإسلامي في كلام كثير منهم . ولعل من أوضح ذلك ما ذكره الرئيس السابق كلينتون في محاضرة ألقاها بجامعة مشهورة في واشنطن العاصمة هي جامعة جورج تاون ، وقد كنت أشرت إليها في بعض المحاضرات ، ثم ناقشت أجزاء منها بشيء من التفصيل مع بعض الشباب بمقر دار الأرقم بواشنطن .

مما قال كلينتون في تلك المحاضرة أن الخلاف الأساس بيننا وبينهم - يعني المسلمين أو جماعة منهم - هو تصورنا لطبيعة الحقيقة . فنحن نعتقد أنه لا أحد يعلم الحقيقة كلها ، ولذلك نرى أن كل إنسان له اعتبار . أما هم فيرون أنهم

يعرفون الحقيقة كلها، ولهذا يرون أنك إذا لم تكن مسلماً فإنك كافر، وإذا كنت مسلماً ولم توافقهم فأنت مبتدع، وأنت في الحالين هدف مشروع حتى لو كنت طفلة في السادسة من عمرها.

كان مما قلته في تلك المحاضرة<sup>(١)</sup> أنه إذا كان المقصود بالحقيقة كلها معرفة كل شيء فنحن أول من يعترف بأن هذا أمر لا يتصف به بشر؛ وإنما هو من صفات الله تعالى، وحتى إذا كان المقصود به معرفة كل شيء عن بعض الأشياء فنحن نؤمن بأن الله - تعالى - هو وحده المحيط بكل شيء علماً. إننا لا نعرف كل شيء حتى عن ربنا الذي نعبد؛ فإن من أسمائه ما استأثر هو وحده بعلمه. لكن ما نعرفه عنه - سبحانه وإن كان قليلاً - فإنه يكفي لإقناعنا بأنه هو وحده الذي يستحق أن يُعبد، وأنه هو الذي أنزل القرآن على محمد ﷺ. وكذلك ما نعرفه عن أمورنا الدنيوية - ولله المثل الأعلى - هو أيضاً كاف لاستفادتنا منها. فنحن قبل أن نعرف أن الماء مكون من هيدروجين وأكسجين كنا نعرف أنه يروي الظمأ وأنه ضروري لإنبات الزرع، وأنه ينقي من الوسخ، وهكذا. فمحدودية العلم لا تعني نسبية الحقيقة، بل إن فيما نعرفه - ما دام حقاً - البرهان القاطع على أن نقيضه باطل. وكان مما قلته أن الكفر معناه إنكار الحقيقة، أو إنكار ما يزعم أنه حقيقة. فالذي ينكر أن محمداً رسول الله مع علمه بذلك منكر لحقيقة فهو كافر، والذي ينكر أن يكون غير الله مستحقاً للعبادة هو في التعبير القرآني كافر بالطاغوت. وقلت أيضاً إن أساس علاقتنا مع من لا يؤمن بالإسلام هي دعوته إليه بالحكمة والموعظة الحسنة، ومجادلته بالتي هي أحسن، وأننا لا نقتل إنساناً لمجرد أنه كافر وإلا لما بقي في العالم منهم اليوم عين تطرف. ثم كيف يأمرنا ديننا بقتل كل كافر وهو يُحل لنا الزواج بالمحصنات من أهل الكتاب؟ أفنعقد عليها ثم نسل سيفنا لنضرب عنقها؟ أما الأطفال فهم في حكم ديننا مسلمون؛ فلماذا نقتلهم؟

(١) كانت المحاضرة بالإنجليزية وتجد نصها في موقعنا المشار إليه.

(١١)

## الاعتقاد في حفظ السنة

(البيان ١٩٤ - شوال ١٤٢٤ هـ - ديسمبر ٢٠٠٣ م)

إن قوة الإسلام التي ما تزال سبباً في سرعة انتشاره وإقبال رواد الحق إليه، إنما هي في قوة الحق الهادي الذي يرويه باديّاً على محياه. وهو حق يتضافر على إبرازه الوحيان: كتاب الله المنزل، وسنة رسوله المبينة؛ ولا بقاء له بأحدهما دون الآخر. ففتنة التشكيك في السنة مقصد عظيم من مقاصد الذين يسعون جاهدين لتقويض هذا الدين وإيقاف احتلاله لقلوب كانت تعيش فيها معتقدات باطلة وهرطقات فارغة. لكن المؤسف أن الأدوات التي تستخدم لنشر هذه الفتنة هي السنة وعقول إسلامية قد تكون حسنة النوايا. ولذلك فإنها تلجأ في نشر فتنتها إلى استعمال حجج دينية.

فالسنة المحمدية تُنكر تارة بدعوى أنه لا حاجة إليها مع وجود القرآن الكريم، وتارة بدعوى أن كثيراً من الأحاديث - حتى ما شهد له جهابذة العلماء بصحة السند - يتنافى مع ما تقرره بعض آيات القرآن الكريم، أو ما يقتضيه العقل السليم، وتارة بأن الله - تعالى - إنما تكفل بحفظ القرآن الكريم ولم يعد بتكفله بحفظ السنة المطهرة. وحديثنا في هذا المقال منحصر في هذه الدعوى الأخيرة؛ لأن أصحابها يقولون إنهم ليسوا بمن ينكر السنة، وإنما هم من الذين يشكّون في ثبوتها كلها. ولذلك فإنهم يعطون أنفسهم حق النظر فيها والحكم عليها بأهوائهم (لا أقول بعقولهم)، فما رأوه موافقاً للكتاب قبلوه، وما رأوه مخالفاً له أنكروه مهما كانت قوة سنده، وسواء كان في الصحيحين أو في غيرهما.

نقول لهؤلاء وغيرهم: إن على كل من يؤمن بأن محمداً ﷺ خاتم الأنبياء، وأنه مرسل إلى الناس كافة إلى قيام الساعة، أن يعلم أن من لوازم هذا الإيمان

الاعتقاد في حفظ السنة . عليه أن يعتقد هذا سواء علم كيف حفظت أو لم يعلم ،  
وسواء كان من العلماء أو من العامة . لماذا؟

يقول الله - سبحانه وتعالى - : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

[الحجر : ٩] .

ومع أن المعنى الشائع لكلمة الذكر في هذه الآية أنه القرآن الكريم ؛ فقد قال  
بعض العلماء إنها تشمل السنة أيضاً . والذي أريد بيانه هنا أنه حتى لو لم تكن  
كلمة الذكر شاملة للسنة ، إلا أنها تستلزمها .

كيف ؟ إن كلمة الذكر تدل على أن المحفوظ ليس مجرد كلمات أو نصوص  
يمكن أن تبقى مصونة في متحف من المتاحف الأثرية ؛ وذلك لأن حفظ الذكر  
يقتضي فهم المعنى ؛ لأن الكلام لا يكون ذكراً إلا إذا فهم . وهل يفهم القرآن  
الكريم حتى لو كان فهماً أولياً إلا إذا عرفت لغته ؟ وقد قال - تعالى - : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ  
قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف : ٣] . ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾  
[يوسف : ٢] .

فالقرآن إذن لا يُعقل معناه ولا يُفهم إلا إذا فهمت اللغة العربية ؛ فحفظه  
يستلزم حفظها . وهذا هو الذي حدث بحمد الله - تعالى - وفضله . فاللغة العربية  
حُفظت كما لم تحفظ لغة غيرها ؛ فما زالت الملايين من الناس تتحدث بها  
وتكتب ، وما زالوا يتذوقون أدبها ، وما زال التعمق فيها أمراً ميسوراً . وقد  
استخدم الله - تعالى - لهذا الحفظ رجالاً حباهم بجمع ألفاظها ، وحفظ نحوها  
وصرفها ، وجمع شعرها ونثرها . لكن الكتاب المحفوظ نفسه كان أهم سبب في  
حفظها لقراءة المؤمنين المستمرة له ودراستهم لتفسيره وتمعنهم في بلاغته  
وإعجازه .

وقال الله - سبحانه وتعالى - مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ  
مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٤٤] .

ولحكمة ما استعمل الله كلمة الذكر هنا كما استعملها في الآية الكريمة التي هي موضع دراستنا. فكما أن الذكر لا يُفهم إلا بفهم لغته، فإنه لا يتبين إلا ببيان الرسول له؛ فحفظ الذكر يستلزم لا جرم حفظ بيانه.

إن واحداً من عامة عقلاء البشر لا يكتب كتاباً يقول إنه لا يُفهم فهماً كاملاً إلا بالحواشي المصاحبة له، ثم ينشر الكتاب من غير تلك الحواشي. فكيف يُظن بالحكيم العليم أن يرسل رسولاً تكون مهمته أن يبين كتابه، ثم يحفظ الكتاب ولا يحفظ ذلك البيان؟

والله - سبحانه وتعالى - يشير في أكثر من أربعين موضعاً في كتابه إلى سنة رسوله، فيأمر باتباعه وعدم تقديم كلام بشر على كلامه، ويبين ضرورة هذا الاتباع وفضله، وأنه أمر يقتضيه حب المؤمن لربه، ويحذر - سبحانه - من مخالفة هذه السنة. يذكر كل هذا في مثل قوله - سبحانه - : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١].

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [الحشر: ٧].

﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

[النور: ٦٣].

هل يتصور عاقل يقدر ربه حق قدره أن يشير في أمثال هذه الآيات إلى معدوم بالنسبة لمن هم في عصورنا هذه المتأخرة؟

كيف يكون الناس في عهده ﷺ بحاجة إلى سنته وهم الذين نزل القرآن الكريم بلغتهم، ولا نكون نحن بحاجة إليها؟

كيف يشير إلى معدوم بالنسبة لنا وقد أرسل رسوله ﷺ للناس كافة إلى قيام

الساعة وجعله خاتماً لأنبيائه؟

وإذا كان - سبحانه وتعالى - يعلم أن حاجتنا إليها عظيمة؛ فكيف يتصور أن لا يحفظها لنا وينعم علينا بهدايتها كما أنعم على الذين من قبلنا؟

إن القول بعدم حفظ السنة له خبيء من أبطل الباطل هو أن محمداً ﷺ إنما أرسل لمعاصريه . وخبيء آخر هو أن الكفار كانوا محقين في إنكارهم لإرسال الرسل وفي زعمهم بأن كل واحد منهم مؤهل لأن يؤتى مثل ما أوتي رسل الله .

﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً﴾ [المدثر: ٥٢] .

كيف يشك إنسان في حفظ السنة ثم يشهد بلسانه بأن محمداً رسول الله؟ ماذا تعني هذه الشهادة بالنسبة له؟ إنه لا فرق في واقع الأمر بين إنكار السنة وإنكار حفظها؛ فكلا الأمرين يؤدي إلى عدم الاهتمام بها .

والاعتقاد في حفظ السنة من لوازم الإيمان بالرسالة المحمدية؛ لأن المؤمن بهذه الرسالة يسأل الله - تعالى - في كل ركعة من ركعات صلاته الواجبة والنافلة في كل يوم أن يهديه إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين . ومن ذا الذي يدخل في من أنعم الله عليهم إن لم يدخل فيهم جهابذة العلماء الفضلاء الأتقياء الذين أفنوا أعمارهم في جمع السنة وحفظها وتفتيشها ودراستها والعمل بها؟ كيف يدعو إنسان ربه أن يهديه إلى صراط الذين أنعم الله عليهم، ثم يعرض عن علماء السنة هؤلاء أو يتعالى عليهم ظاناً أنه أعلم منهم أو أعقل أو أذكى أو أحرص على دين الله؟ كلا؛ بل إن المؤمن الصادق ليقول لنفسه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَفْتَدِهِ﴾ [الأنعام: ٩٠] .

إنه لا بد من سلوك صراط هؤلاء إلا سلوك طريق المغضوب عليهم من الذين عرفوا الحق وأنكروه، أو سلوك طريق الضالين الذين عبدوا الله بأهوائهم وتخرصاتهم، فلم يكونوا من الذين هداهم الله ولا من أولي الألباب .

وإنه لمن تمام حفظ الذكر العظيم أن يكون بين المسلمين دائماً علماء يستهدون



بهداهم في معرفة هذا الذكر ، ويسألونهم ويستفتونهم . وإنه لمن أعظم ما يتميز به هؤلاء العلماء الهداة هو معرفة سنة الرسول ﷺ .

قال ﷺ: لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون<sup>(١)</sup> .

«إن بداية عموم الضلال أن يذهب من على وجه الارض أمثال هؤلاء العلماء ، فيذهب بذهابهم العلم بكتاب الله - تعالى - مع وجود نصوصه :

«إن الله - تعالى - لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»<sup>(٢)</sup> .

وحين يحدث هذا لا تبقى من فائدة في وجود النص القرآني ؛ لأنه لا يكون آنذاك ذكراً ؛ ولهذا فإن الله - تعالى - يرفعه إليه ، ثم يأذن بقيام الساعة .

\* \* \*

(١) البخاري ، حديث ٣٣٦٨ ، ومسلم ، حديث ٣٥٤٤ .

(٢) البخاري ، حديث ٩٨ .

(١٢)

## الديمقراطية اسم لا حقيقة له

(البيان ١٩٦ - ذو الحجة ١٤٢٤ هـ - يناير/فبراير ٢٠٠٤م)

لم تجد الديمقراطية في تاريخها كله رواجاً مثلما وجدت في عصرنا هذا؛ لقد كان معظم المفكرين الغربيين منذ عهد اليونان كثيرون النقاد لها، بل ورفضها، حتى إن أحد الفلاسفة البريطانيين المعاصرين ليقول: إذا حكمنا على الديمقراطية حكماً ديمقراطياً بعدد مَنْ معها وعدد مَنْ ضدها من المفكرين لكانت هي الخاسرة<sup>(١)</sup>.

أما في عصرنا فإن الدعاية الواسعة لها أعمت كثيراً من الناس - ولا سيما في بلادنا - عن عيوبها التي يعرفها منظروها الغربيون. بل إن المفتونين بها المروجين لها صاروا يصورونها كالبلسم الشافي لكل مشكلات المجتمع السياسية وغير السياسية. لذلك رأيت أن أشارك في تصحيح هذه الصورة الكاذبة ابتداءً بهذا المقال الذي أرجو أن يكون فاتحة لكتاب كامل عن مشكلات الديمقراطية والبدائل الإسلامية.

أول ما يؤخذ على الديمقراطية كونها اسماً لا حقيقة له؛ أعني أنه إذا وصف لك نظام سياسي بأنه دكتاتوري أو ديني مثلاً تصورت ما المقصود بهذا الوصف، وكانت صورتك الذهنية هذه مطابقة للواقع الذي يوصف بهذا الوصف. ولكن ليس كذلك الأمر بالنسبة للديمقراطية؛ إذ أن الديمقراطية كما يدل عليها اسمها، وكما يعرفها كبار منظريها وساستها هي حكم الشعب. لكن الصورة الواقعية لما يسمى بالديمقراطية - مهما كانت حسناتها أو سيئاتها - ليست هي حكم الشعب:

أولاً: لأن مفهوم الشعب نفسه مفهوم غامض كما يرى بعض كبار منظري الديمقراطية. استمع إلى الأستاذ (روبرت دال) الذي ربما كان صاحب أشمل

(1) Ross Harrison, Democracy, Routledge, London and New York, 1995, p.3.

بحث أمريكي عن الديمقراطية، وهو الذي وُصف في غلاف كتابه هذا الذي ننقل عنه بأنه «من أبرز منظري زماننا السياسيين» وأنه نال على هذا الكتاب جائزتين كبيرتين: «إن دعاة الديمقراطية - بما في ذلك الفلاسفة السياسيون - يتميزون بكونهم يفترضون مقدماً أن هنالك شعباً موجوداً فعلاً. إنهم يعدون وجوده واقعاً صنعه التاريخ. لكن هذه الواقعية أمر مشكوك فيه، كما كان مشكوكاً فيه في الولايات المتحدة عام ١٨٦١ م، عندما حسم الأمر بالعنف لا بالرضى ولا بالإجماع. إن الافتراض بأن هنالك شعباً موجوداً، وما يبنى على هذا الافتراض من لوازم تصير جزءاً من النظرية الديمقراطية الخيالية»<sup>(١)</sup>.

ثانياً: لأن الشعب لم يكن في يوم من الأيام ولن يكون حاكماً؛ ذلك أمر متعذر. وإليك بعض شهادات أهلها على ذلك:

إن الديمقراطية المثالية هي ما يسمى بالديمقراطية المباشرة التي يقال إنها كانت تمارس في أثينا، أول دولة ديمقراطية نشأت في القرن الخامس قبل الميلاد. تسمى بالمباشرة؛ لأن «الشعب» كان يجتمع في العام أربعين مرة ليناقد كل القضايا السياسية المهمة مناقشة مباشرة ويصدر فيها قراراته. لكنها مع ذلك لم تكن حكم الشعب:

١ - لأن الذين أسسوا النظام الديمقراطي كانوا فئة قليلة من الناس هم الذين قرروا من الذي يستحق أن يدخل في مسمى الشعب الحاكم ومن الذي لا يستحق، فاستثنوا النساء، والرقيق، وكل من كان من أصل غير أثيني مهما طال مكثه فيها؛ وعليه فلم يكن الذين لهم حق المشاركة السياسية إلا نسبة ضئيلة من المواطنين<sup>(٢)</sup>.

٢ - كان يكفي لاعتبار الاجتماع منعقداً أن يحضره ستة آلاف مما يقدر بست وثلاثين ألف عضو، أي إن القرارات المتخذة فيه لم تكن قرارات تلك الفئة كلها

(1) Robert A. Dahl, Democracy and its Critics, Yale University Press, 1989, pp. 3-4.

(2) Ibid p. 17.

التي أعطيت حق الحكم .

٣ - كانت مدة الاجتماع لا تتجاوز عشر ساعات ؛ فلم يكن بإمكان الناس جميعاً أن يشاركوا في المداولات ، وإنما كان الذي يستأثر بالكلام بعض قادتهم ، وكانت البقية تابعة لهم .

لما بعثت الديمقراطية مرة ثانية في القرن الثامن عشر في أوروبا كان من المتعذر أن تكون ديمقراطية مثل ديمقراطية أثينا بسبب الازدياد الكبير في عدد السكان ، وصعوبة اجتماعهم . ولكن بدلاً من أن يقال إن الديمقراطية بمعنى حكم الشعب غير ممكنة الآن ، فلنبحث عن نظام حكم آخر يتناسب مع واقعنا . تحايل بعضهم فسمى ديمقراطية أثينا بالديمقراطية المباشرة ، واقتراح أن تكون الديمقراطية الحديثة ديمقراطية غير مباشرة ، أو ديمقراطية تمثيلية ، أي ديمقراطية يختار فيها الشعب فئة قليلة منه تكون ممثلة له وحاكمة باسمه . كان هذا التحايل ضرورياً ؛ لأنه كانت هنالك أزمة سيادة : من هو الجدير بأن يكون السيد الأمر النهائي الذي لا معقب لحكمه ؟ كانت هذه السيادة للملوك ، وكانوا يعدون هذا الحق حقاً إلهياً أعطاهموه الله تعالى ؛ لأن الناس كانوا قبل ذلك مؤمنين يعتقدون أن مثل هذه السيادة لا تكون إلا لله أو لمن أعطاه الله له . لكن الناس لم يعودوا يؤمنون بهذا بعد الثورة الفكرية الكبيرة التي حدثت في قرنهم الثامن عشر ، والتي كانت في مجملها دعوة للانسلاخ من حكم الدين في كل مجال من مجالات الحياة . لم يكن هنالك من بديل لحكم الله أو لحق الملوك المقدس في الحكم ، إلا أن يقال إن الحكم للشعب كله ؛ فهو صاحب الكلمة الأخيرة فيما ينبغي أن يكون أو لا يكون . لكن الديمقراطية التمثيلية أو النيابية كانت بالضرورة أبعد من الديمقراطية المباشرة عن أن تكون حكماً للشعب ؛ وذلك :

١ - لأن الحكم له معنيان : حكم تشريعي ، وحكم تنفيذي . فبأي معنى يحكم الشعب ؟ لا يمكن أن يحكم بالمعنى الثاني ؛ لأن الشعب لا يمكن أن يكون

كله رأس دولة أو مجلس وزراء أو قائد جيش ، وكان الفيلسوف الفرنسي روسو أول من سخر من الديمقراطية بمعنى الحكم التنفيذي ، فقال :

«إذا أخذنا العبارة - يعني كلمة الديمقراطية - بمعناها الدقيق ؛ فإنه لم تكن هنالك قطُّ ديمقراطية حقيقية ، ولن تكون . إنه من المخالف للنظام الطبيعي أن تكون الأغلبية حاکمة والأقلية محكومة . إنه لا يتصور أن يكون الشعب مجتمعاً دائماً لقضاء وقته في تصريف الشؤون العامة . ومن الواضح أنه لا يمكن أن يكون لجناً لهذا الغرض إلا بتغيير شكل النظام الإداري»<sup>(١)</sup> .

٢ - لم يبق إذن إلا الحكم بمعنى التشريع ؛ لكن الشعب ليس هو المشرع في الديمقراطية النيابية ، وإنما هو الذي ينتخب من يشرع . ومرة أخرى نستمع إلى روسو ساخراً من هذا :

«إن الأمة الإنجليزية تعتبر نفسها حرة ؛ لكنها مخطئة خطأ فادحاً ؛ إنها حرة إبان فترة انتخابات أعضاء البرلمان ؛ وبمجرد أن ينتخبوا ؛ فإن العبودية تسيطر عليها ، فلا تكون شيئاً . وكيفية استفادتها من لحظات الحرية القصيرة التي تستمتع بها تدل حقاً على أنها تستحق أن تفقدها»<sup>(٢)</sup> .

٣ - لأن نواب الشعب ليسوا هم الشعب حتى لو كان اختياره لهم بالإجماع . ربما كان هذا معقولاً لو أن النواب يجتمعون للبت في قضية واحدة يعرف كل منهم رأي ممثليه فيها ، أما والقضايا كثيرة ومعقدة وبحاجة إلى علم لا يتأتى لعامة الناس ؛ فإن الحكم لا يكون حكم الشعب . نعم ! إن كل نائب منهم يتجنب المشاركة في تشريع يعلم أن أكثر الناس في دائرته الانتخابية لا توافق عليه ، وأنه إن شارك فيه فربما يفقد مقعده في الانتخابات التالية . لكن هذا قليل جداً من كثير .

(١) العقد الاجتماعي ، الكتاب الثالث ، الفصل الرابع ، ص ٢٣٩ .

(٢) المصدر نفسه ، الفصل ١٥ ، ص ٢٦٦ .

٤ - والمتخبون لا يكونون في الواقع منتخبين بالإجماع الذي يقتضيه وصف الحكم بأنه حكم الشعب، وإنما ينتخبون بالأغلبية، والأغلبية ليست هي الكل، وما ترتضيه الأغلبية في دائرة معينة قد لا ترتضيه الأغلبية في دائرة أخرى، أو قد لا ترتضيه أغلبية الشعب لو كان انتخابه مباشراً، لكنه مع ذلك يعد ممثلاً للشعب وحاكماً باسمه.

٥ - ثم إن الأغلبية لم تكن في بداية الديمقراطية هي أغلبية الشعب كله؛ فقد استثنوا منها النساء، واستثنوا بعض الفقراء، واستثنى الأمريكيان الأرقاء، فلم يدخل النساء في مفهوم الشعب الحاكم الذي يحق له أن يصوّت إلا في عام ١٩١٨م في بريطانيا، وعام ١٩٢٠م في الولايات المتحدة، ولم يُعطَ السود هذا الحق إلا بتعديل للدستور الأمريكي في عام ١٨٨٦م؛ ولكن حتى بعد شمول مفهوم الشعب الحاكم لكل المواطنين باستثناء الأطفال، ظلت بعض الفئات محرومة من حق المشاركة في الانتخابات. استمع إلى ما يقول هذا المؤلف الأمريكي في كتاب له حديث عن الديمقراطية: «ملايين من الناس يبقون فاقردين حق التصويت كلياً أو جزئياً، مئات الألوف من المواطنين الذين يعيشون في واشنطن العاصمة، مليون ونصف مليون ممن ارتكبوا جنحاً وعوقبوا على ارتكابها؛ لكن ولاياتهم تحرمهم رغم ذلك من التصويت. عدة ملايين من الذين يعيشون في بورتوريكو وأقاليم فيدرالية أخرى، والملايين غير المحددة في أمريكا كلها الذين تضيع أوراق تصويتهم، أو تحسب خطأ، أو تحطم في كل انتخاب»<sup>(١)</sup>.

٦ - وبما أن الانتخابات في أمريكا إنما يشارك فيها من سجل اسمه للمشاركة فيها قبل بدئها، وبما أن كثيراً من الناس لا يسجلون أسماءهم؛ فإن الأغلبية إنما تكون أغلبية من صوتوا ممن سجلوا ممن يحق لهم أن يصوتوا. وقد كانت هذه النسبة في انتخابات عام ٢٠٠٠م كالآتي كما جاء في تقرير حكومي رسمي:

(1) Jamin B. Raskin, Overruling Democracy, Routeledge, 2003, p.9.

من مجموع عدد الناس البالغ ٢٠٣ ملايين والذين كانت أعمارهم ١٨ عاماً أو أكثر، ١٨٦ مليوناً منهم مواطنون، سجل منهم للانتخابات ١٣٠ مليوناً، وصوّت منهم ١١١ مليوناً، وعليه فقد كانت معدلات تصويت السكان الذين أعمارهم ١٨ عاماً أو أكثر ٥٥٪ من مجموع السكان، و ٦٠٪ من المواطنين، و ٨٦٪ من المسجلين<sup>(١)</sup>.

### • الديمقراطية الليبرالية:

هنالك أمر لا يتفطن إليه كثير من الناس هو أن الديمقراطية في البلاد الغربية ليست ديمقراطية خالصة مطلقة وإنما هي ديمقراطية مقيدة بالليبرالية. ما معنى هذا؟ الليبرالية نظرية سياسية فحواها أن المجتمع يتكون أساساً من أفراد - لا من طبقات ولا من أسر ولا من أي تجمعات أخرى. وبما أن الفرد هو أساس المجتمع، وبما أن له - بوصفه فرداً - حقوقاً أهمها حريته؛ فإنه لا يجوز للحكومة ولا لفئة من الشعب، بل ولا لأغلبية الشعب أن تتغول على حريته. ولذلك فإنهم يدعون إلى ما يسمونه بالحد الأدنى من الحكومة، أي إن الأساس هو أن يترك الأفراد أحراراً يختارون ما شاؤوا؛ فعلى الدولة أن لا تتدخل إلا تدخلاً اضطرارياً الغرض منه حفظ حقوق الأفراد التي قد يتغول عليها بعضهم. ويحذرون لذلك مما يسمونه بدكتاتورية الأغلبية. كنت أنوي الاستدلال على ذلك بكتابات عدد من الساسة والمنظرين الغربيين ولا سيما الأمريكيين منهم، لكن أغناني عن كل ذلك كلام وجدته لواحد منهم معروف اسمه (ليبمان) قال عنه مقدمو الكتاب الذي نشروا فيه مجموعة من مقالاته، والذي نقل منه النصوص التالية: «إنه ربما كان أعظم مفكر سياسي أمريكي في القرن العشرين»<sup>(٢)</sup> فأليك بعض ما قال مما نحن بصدده:

(1) Source: U.S. census bureau.

(2) Clinton Rossiter & James Lane, editors, The Essential Lippman: A Political Philosophy for Liberal Democracy, Harvard University Press, 1982, p. xi.

«يجب في رأيي أن نرفض القول بأن مبادئ الحرية والعدالة والحكم الصالح إنما تتمثل في حكم الأغلبية.

هنا يكمن أصل المسألة. لقد كان الرئيس (واشنطن) يعتقد أن الشعب يجب أن يحكم، لكنه لم يكن يعتقد أنه بسبب حكم الشعب تتحقق الحرية ويتحقق العدل والحكم الصالح. كان يعتقد أن الشعب ذا السيادة لا يؤتمن - كما لم يؤتمن الملك ذو السيادة الذي كان هو خلفاً له - على السلطة المطلقة.

إنه لم يخدع نفسه... إنه لم يكن يؤمن بما صار الآن الأديولوجية الديمقراطية السائدة: أن كل ما رأت جماهير الناس أنها تريده فيجب أن يقبل على أنه الحقيقة.

لقد كان يعلم أنه لا ضمان من أن يتحول حكم الشعب إلى حكم قهري، تعسفي، فاسد، ظالم وغير حكيم. إن الشعب أيضاً يجب أن يكبح جماحه. إنه كغيره يجب أن يحاسب. إنهم كغيرهم يجب أن يعلموا. إنهم كغيرهم يجب أن يرفعوا فوق مستوى سلوكهم المعتاد»<sup>(١)</sup>.

سيقول الديمقراطي المتزعم بمبدئه: لكنكم بهذا تضعون سلطة فوق سلطة الشعب؛ والمبدأ الديمقراطي هو أن السلطة للشعب، فلا أنت إذن يا ليتمان ولا واشنطن من قبلك بديمقراطيين. سيرد ليتمان بأنكم تحاجوننا بالديمقراطية الخالصة التي تؤمن بسيادة الشعب إيماناً مطلقاً، لكن الديمقراطية التي أتحدث عنها وأدعو إليها هي الديمقراطية الليبرالية التي تحد من هذه السلطة.

سيذهب بعض الليبراليين الذين جاؤوا من بعد واشنطن بعقود إلى أبعد مما ذهب إليه فيؤكدون أن الليبرالية عندهم هي الأساس، وأنه إذا حدث تعارض بينها وبين الديمقراطية فينبغي التضحية بهذه لا بتلك. فهذا هو المفكر الليبرالي هايك يقول بعد أن دافع عن الديمقراطية دفاعاً قوياً، وبعد أن بين ضرورة الليبرالية

(1) Ibid pp. 4-5.



لها في كتاب له نال شهرة واسعة قبل خمسين عاماً:

«لا أريد أن أجعل من الديمقراطية وثناً يُعبد؛ فربما يكون حقاً أن جيلنا يتحدث ويفكر أكثر مما يجب عن الديمقراطية، وأقل مما يجب عن القيم التي تخدمها. . . . إن الديمقراطية في جوهرها وسيلة. إنها أداة عملية لضمان الأمن الداخلي والحرية الشخصية؛ فليست هي بهذه المثابة معصومة ولا مضمونة. كما يجب أن لا ننسى أنه كثيراً ما تحقق قدر من الحرية الثقافية والروحية في ظل حكم مطلق أكثر مما تحقق في بعض الديمقراطيات»<sup>(١)</sup>.

### ● موقفنا من النظم التي تسمى بالديمقراطية:

النظم السياسية التي تسمى بالديمقراطية ليست هي إذن ديمقراطية بمعنى أن الحكم فيها للشعب، وإنما هي نظم سياسية مختلفة وإن كان بينها خصائص مهمة مشتركة. فمن الخطأ إذن تعريف الديمقراطية بأنها نظام الولايات المتحدة أو المملكة المتحدة أو فرنسا أو غيرها من الدول الغربية. وعليه فإذا كان من حق هذه الدول أن تجتهد وتختار لنفسها ما تراه مناسباً لها من تفاصيل المؤسسات والقيم السياسية، مع أنها جميعاً تسمى بالديمقراطية؛ أفلا يكون من حقنا أيضاً أن نختار من المبادئ والقيم السياسية ما نراه مناسباً لهويتنا وواقعنا ووسيلة أحسن لتحقيق أهدافنا، سواء كان فيه ما يشابه النظم الديمقراطية أو يخالفها؟ بلى! بل إن هذا لهو المسلك الطبيعي لكل أمة تقضي بعقلها وتحترم نفسها وتعترف بهويتها وأصالتها.

وعليه فإذا أرادت دولة من دولنا أن تختار لنفسها نظاماً تراه معبراً عن هويتها ومناسباً لعصرها، فيجب أن تبدأ بتقرير المبادئ والقيم التي تريد للدولة أن تلتزم بها، ثم تبحث بعد ذلك عن المؤسسات المناسبة لعصرها وظروفها التي يمكن أن تحمل تلك القيم وتعبر عنها. يمكنها مثلاً أن تقول إنها تريد لدولتها أن تتميز بخصائص منها اختيار الأمة لحاكمها، وسيادة حكم القانون، وحرية الرأي، وأن

(1) F.A. Hayek, The Road to Serfdom, University of Chicago Press, 1994, p. 78.

يكون كل هذا في نطاق ما تؤمن به من منهج في الحياة لا يلزم أن يكون مماثلاً لمنهج الحياة الغربية . فإذا كانت أمة مسلمة جعلت كل ذلك في نطاق هدي الكتاب والسنة ، وأضافت إليه أموراً مثل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والمحافظة على الدين والدفاع عنه ، وهكذا . إنه لا يلزم من موافقة الديمقراطية الليبرالية الغربية في بعض الجزئيات أن يأخذ الموافق سائر ما فيها ، أو أن يتبنى فلسفتها ، أو يتسمى باسمها . ثم إن ما في الديمقراطية من حسنات ليس خاصاً بها ولا مرتبطاً بها ، بل يمكن أن تخلو هي منه كما يمكن أن يوجد في غيرها ، بل قد وجد الكثير منه حتى في حياة جاهليتنا العربية ؛ لكن المجال الآن ليس مجال التوسع في هذا الأمر .

\* \* \*

(١٣)

**سهام بوش ضد الإرهاب**

(البيان ١٩٨ - صفر ١٤٢٥ هـ - مارس / إبريل ٢٠٠٤ م)

أعني بالروح هنا ما يشعر به فرد أو جماعة أو شعب بأكمله من اعتزاز بسبب ما يراه من فضل يتميز به عمن سواه ؛ فضل في خصال أو علم أو مال أو قوة أو غير ذلك ، سواء كان محققاً في شعوره هذا أو واهماً ، والإنسان يصاب في هذه الروح حين يفقد ما كان يعتز به ، أو حين يتبين له أنه ليس كما تصوره ، أو حين يظهر له أنه ليس وحده الذي يتميز به ، وهكذا .

فما الروح الأمريكية بهذا التعريف ، وكيف أصيبت ؟

تتمثل الروح الأمريكية في أمرين : القوة المادية ، والقيم السياسية .

لا يكاد الأمريكيان يكفون عن ترديد القول - بكثير من الفخر والزهو - بأنهم أعظم قوة على وجه الأرض ، بل أعظم قوة في تاريخ البشرية ، وأنه لن تستطيع لذلك أية قوة بشرية أخرى أن تهزمهم ، وأنهم سيعيشون لذلك آمنين لا يخافون من أن تُشن عليهم حرب أو يغلبهم عدو ؛ فمخزونهم من أسلحة الدمار الشامل وغيرها لا مثيل له ، ولا مثيل لقواتهم العسكرية في عددها وعدتها وتدريب أفرادها . وهي ما تزال تطور كل هذا وتنفق عليه ما لا تنفق دولة أخرى على وزارة دفاعها ؛ فميزانية البنتاجون تساوي الآن مجموع ميزانيات الخمس وعشرين دولة التي تلي الولايات المتحدة في القوة العسكرية ، ويقال إنها ستكون بعد بضعة أعوام أكثر من ميزانيات كل وزارات الدفاع في العالم مجتمعة . وهذا يعني أن هذه القوة العسكرية الهائلة وراءها اقتصاد قوي ، بل يقال إنه أقوى اقتصاد في العالم .

ثم وقعت حوادث نيويورك (١١ / ٩ / ٢٠٠١ م) وضربت أمريكا لأول مرة

في تاريخها في عقر دارها . وقد كانت الواقعة وحدها كافية لتبدد شيئاً من ذلك الشعور بالأمن ، لكن إدارة بوش أرادت استغلالها - كما يقول كثير من الأميركيين أنفسهم - لتنفيذ أجندة كانت قد أعدت سابقاً ، فصارت - في سبيل ما تسميه بمحاربة الإرهاب - تهوّل من الأمر وتذكّر المواطنين في كل مرة بأن هنالك خطراً ماثلاً ارتفعت درجته اليوم إلى كذا ، انخفضت إلى كذا ، ارتفعت مرة أخرى إلى كذا ، وهكذا . تحول ذلك الشعور بالأمن إلى خوف دائم ، كان سهماً في المقوم الأول من مقومات الروح الأمريكية ، ومما زاد من الخوف بل والهلع أن بعض المختصين يرون أن حكومة بوش لم تقم بما يجب من المحافظة على أمن البلاد ؛ فهذا أحدهم يقول في مقال له : «إن الرئيس جورج بوش قد أفرد الهجوم الإرهابي النووي على الولايات المتحدة بأنه التهديد الحقيقي الذي ستواجهه الأمة في المستقبل المنظور . في مواجهته لهذا الخطر أكد بأن «الأسبقية العليا للأمريكان هي أن يحولوا بين الإرهابيين وامتلاك أسلحة دمار شامل» ، لكن كلماته لم يتبعها حتى الآن عمل<sup>(١)</sup> .

وإذا كان الرئيس بوش قد عجز عن أن يتبع قوله بعمل يراه هذا الكاتب لازماً ؛ فإنه قد قام بأعمال أخرى رأى أنها هي التي ستساعد على تسديد ضربات موجعة للإرهابيين ، لكن تبين أنها سهام تصيب في الوقت نفسه المقوم الثاني من مقومات الروح الأمريكية . وذلك أن الأميركيين يعتقدون أن نظمهم السياسية والقضائية هي أحسن النظم وأعدلها<sup>(٢)</sup> ، وأن دستورهم الذي كُتب في القرن

(1) Foreign Affairs, <http://www.foreignaffairs.org>, March/April.2004.

(٢) بل يعتقدون أن سجونهم أحسن سجون في العالم ، قلت ذات مرة لأحد مسؤولي السجون إن النظام في السعودية أكثر إنسانية من نظامكم ؛ لأنه يسمح للمسجون أن يخلو بزوجته . فاستغرب وقال : كيف يكون إذن مسجوناً ، هذا جزء من عقابه ؟ قلت : لكنكم بهذا تعاقبون زوجته أيضاً وربما اضطرتهموها لأن تنحرف ، وإذا كنتم تمنعون من هذه الحاجة البشرية ؛ فامنعوه أيضاً من الأكل أو الشرب أو النوم !

الثامن عشر هو أحسن وثيقة كتبها بشر (بل يبالغ بعضهم فيزعم أنها كانت إلهاماً من الله تعالى!). وما زادهم فخراً بهذا وفتنة به أنهم رأوا الناس في العالم كله تقريباً يثنون على نظمهم هذه ويعدونها المثال الذي يجب أن تحذو الدول الأخرى حذوها. وكان الأمريكي إذا خرج سائحاً قبول بالترحاب والاحترام في دول العالم كله تقريباً. ثم انقلب كل شيء بفضل سياسة بوش في محاربة ما يسميه بالإرهاب التي هي في حقيقتها محاربة - باسم الدين المسيحي - للإسلام.

ماذا بقي للولايات المتحدة لتفخر به: أبرئيس يتهمونه كما لم يتهموا رئيساً قبله بكثرة الكذب؛ حتى إنهم ليؤلفون الكتب في هذا، ويتخذون له مواقع على الشبكة؟ أبحكومة تبين لهم أنها خدعتهم وغشتهم حين سوغت هجومها الظالم على العراق بحجة امتلاكه لأسلحة دمار شامل؟ (كيف يكون الحكم باسم الشعب إذا كان من يختاره الشعب يخدعه ويفعل ما لا تريد أغلييته؟) أباحتجاز المئات من الشباب المسلم (بل بعض الأطفال بتعريف قانونهم) في جزيرة نائية بتهمة الإرهاب وعدم تقديمهم لمحاكمة وعدم السماح لهم بمحاميين؟ أبسنّ قوانين جديدة تتعارض مع كل ما كان يعتز به الأمريكيان من قيم الحرية والعدالة؟ أبكتشافهم بأنهم أصبحوا دولة بل شعباً مكروهاً يستحيي الواحد منهم الآن أن يصرح إذا ذهب إلى الخارج بأنه أمريكي؟ أبما يعرفه الكثير منهم الآن من قصص في معاملة المتهمين من المسلمين حتى في داخل الولايات المتحدة؟

قبل بضعة أيام عقد أحد المحامين الذين كانت الدولة قد عينتهم (بحكم قوانين سابقة) للدفاع عن متهمين مسلمين فقراء لا يملكون ما يستأجرون به محامياً. عقد هذا الرجل مؤتمره بعد أن كان من دافع عنهم قد أدينوا، قال الرجل كلاماً فحواه أنه سيقال لكم إن هؤلاء الشباب إرهابيون وإنهم مجرمون. ثم قال إنه لم يكن يعرف شيئاً عن الإسلام ولا المسلمين حتى كان اتصاله هؤلاء الشباب، فأثنى على ما وجد فيهم من خلق مثالي، وضرب لذلك مثلاً بواحد منهم، قال إنه حصلت مساومة بينه وبين متهميه (من المخابرات) بأن يعترف

ببعض الجرائم في مقابل إسقاط بقيتها عنه ، وأن عقاب ما يعترف به لن يزيد على سنتين ، مع أن عقابها كلها يصل إلى أكثر من ١٠٠ سنة ، يقول إنه وافق ، لكنه عندما رأى الورقة التي طُلب منه أن يوقع عليها ، قال : إن هذه كلها أكاذيب ، فأنا لا أستطيع أن أحلف بالله على شيء أعلم أنه كذب مهما كانت النتيجة . قال المحامي : من منا يفعل هذا؟ وقال : إنني لا أقول فقط إن هذا الشاب لا يكذب ، بل أقول : ما أظنه يعرف حتى كيف يكذب !

ونقول نحن : إنه إذا كان من شأن الأكاذيب والاعتداءات الظالمة والانتهاكات الباطلة أن تفت من روح الأمة الأمريكية ؛ فإنها بحمد الله - تعالى - تقوي من روح المسلمين منهم ، وتزيدهم ثقة بدينهم واعتزازاً به .

وقد كانت السهام الموجهة إلى المقوم الثاني من مقومات الروح الأمريكية أكثر إيلاماً وأشد تأثيراً ؛ تجد التعبير عنه في كثرة ما قيل ويقال عنه في وسائل الإعلام مسموعة ومشهودة ومقروءة ؛ فهم الآن يناقشون أموراً كانوا يعدونها من مسلّمات حضارتهم ، وصدق الله العظيم : ﴿ وَلَا يَحِقُّ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ .

[ فاطر : ٤٣ ] .

\* \* \*

(١٤)

**تم..تم..تم.. أسلوب جديد ركيك**

(البيان ١٩٩ - ربيع الأول ١٤٢٥ هـ - إبريل / مايو ٢٠٠٤ م)

هذا مقال في اللغة العربية لم يشرف صاحبه بأن يكون من علمائها المختصين بها؛ غير أنه من محبي هذه اللغة الشريفة لغة الكتاب العزيز، يسرني ما سرها ويسوؤني ما ساءها. وإنه لما يسيء إليها أن يستبدل أهلها بعبارات الفصيحة عبارات ركيكة فرضوها عليها تقليداً للغات أجنبية لم تبلغ من شأو الفصاحة مبلغها، ثم أشاعوها حتى صارت على لسان الصغير والكبير والعالم والجاهل.

انتبهت إلى مشكلة (تم) هذه قبل أكثر من عشر سنوات حين قدم أحد إخواننا السودانيين - الدكتور عثمان أبو زيد - رسالة للدكتوراه في الإعلام من جامعة الإمام، كانت عن لغة الصحافة العربية. وجد الدكتور أن كلمة (تم) هي من أكثر - إن لم يقل أكثر - الكلمات تكراراً في صحفنا. تعجبت لذلك، ثم بدأت أرصد لغتنا الحديثة، فوجدت أن الأمر ليس قاصراً على الصحافة، بل هو شائع في كتبنا وأحاديثنا ومحاضراتنا.

نظرت في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم فوجدت أن كلمة تم لم ترد في القرآن كله إلا مرة واحدة، وأن كلمة تمت وردت ثلاث مرات، وأما الصيغ الأخرى: أتم، يتم، أتمم، تماماً، متم - التي ليست موضوع حديثنا - فلم ترد كلها إلا أربعاً وعشرين مرة.

ثم بدأت ألقى بالاً لورود هذه الكلمة فيما أقرأ من كتب الأقدمين وأشعارهم، فوجدت أن نسبة ورودها فيها قليلة جداً ربما كانت كنسبة ورودها في كتاب الله تعالى. قلت في نفسي: ما الذي اكتشفناه نحن في قرننا المتأخر هذا في هذه الكلمة مما لم يكن يعرفه أهل هذه اللغة؟ هل وجدناها هي المعبرة عن معنى

جديد هو من لوازم عصرنا؟ أم ماذا؟ ثم وجدت الإجابة أمراً مؤسفاً. وجدت أننا صرنا نستعملها - في أكثر الأحيان - بدلاً عن صيغة نائب الفاعل المعروفة؛ فبدلاً من أن نقول: فعل الشيء صرنا نقول تم فعله. من أمثلة ذلك ما تسمعه أو تقرأه في بعض الصحف والقنوات من مثل قولهم: تم إغلاق مكتب الحزب، تم اكتشاف دواء جديد، تم تعيين فلان للمنصب الفلاني، تمت ترقية فلان، لم يتم العثور على أسلحة الدمار الشامل، وهكذا.

كان الاستعمال الغالب لهذه الكلمة بمعنى إكمال الشيء الناقص، ولذلك لم تكن تستعمل إلا مع الأسماء. من أمثلة ذلك في كتاب الله:

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِيقَاتٍ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾.

[الأعراف: ١٤٢].

﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ [القصص: ٢٧].

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾.

[البقرة: ٢٣٣].

ومما جاء في الحديث:

«فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا».

ومما جاء في الشعر الجاهلي قول النابغة:

إني أتمم أيساري وأمنحهم مثنى الأيادي وأكسو الجفنة الأدماء

قال ابن فارس: «تتميم الأيسار أن تطعمهم فوز قدحك فلا تنتقص منه شيئاً».

أما الاستعمال الحديث الركيك فلا علاقة له بإتمام شيء ناقص، وإنما صارت



الكلمة تستعمل للتعبير عن فعل لم يسم فاعله . كنت أظن أن كل هذا التغيير حدث خطأ وغفلة ، غير أن بعض الشباب بالجامعة أخبرني آنذاك أن أستاذ الإعلام في البلد التي جاء منها كان ينهاهم عن استعمال صيغة نائب الفاعل ويصفها بأنها سخيفة . وينصحهم بدلاً من ذلك بأن يستعملوا صيغة تم فعله . قلت له : إن أستاذكم هذا لأحمق ؛ لأنه لم يفعل شيئاً غير أن طولَّ العبارة . فإذا كانت الصيغة التي استسخرها لا تسمى الفاعل فصيغته أيضاً لا تسميه . كل ما هنالك أنها تستبدل بالكلمة الواحدة ثلاث كلمات . فبدلاً من أن تقول مثلاً : فهم المقال ، وبيعت السلعة ، وعوقب المجرم ، تقول تم فهم المقال ، وتم بيع السلعة ، وتمت عقوبة المجرم . بل قال لي أحدهم إنها تقليد للصيغة الإنجليزية التي يوصف الفعل فيها بأنه كامل أو تام . فيبدو أن أحد عباقرة المقلدة قال : لماذا لا يكون لنا كما لهم فعل تام ، فاقترح أن تضاف كلمة تم للتعبير عن هذا التمام ، مع أن كلمة تام لا تستعمل في العبارة الإنجليزية ، وإنما يوصف بها الفعل في كتب النحو .

إذا أردت أن ترى ركافة هذا الأسلوب أو التركيب الجديد فانظر ما يحدث لو أنك عبرت به عن معاني الآيات التالية :

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ۝٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ۝١١﴾ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝﴾ [ التكوير : ١ - ١٣ ] .

### • كنت ستقول - حماني الله وإياك :

إذا الشمس تم تكويرها ، وإذا النجوم تم انكدارها ، وإذا الجبال تم تسييرها ، وإذا العشار تم تعطيلها ، وإذا الوحوش تم حشرها ، وإذا البحار تم تسجيرها ، وإذا

النفوس تم تزويجها، وإذا المؤودة تم سؤالها بأي ذنب تم قتلها، وإذا الصحف تم نشرها، وإذا السماء تم كشطها، وإذا الجحيم تم تسعيرها، وإذا الجنة تم إزلافها.

فهل يقول مثل هذا إنسان بقيت له أثارة من حس جمالي، أو سليقة عربية؟ كلاً. ولذلك فإن أكثر الناس استعمالاً لكلمة تم بهذا المعنى لا يلتزم بها في كل حال، بل يجد نفسه مضطراً للجوء إلى الصيغة الفصيحة<sup>(١)</sup>.

كيف إذن نصحح هذا الخطأ الذي رسخ في أذهاننا سنين عدة؟ إن أول خطوة هي أن نكون مقتنعين بخطئه وقبحه، ثم إذا كان الواحد منا كاتباً فعلياً أن يراجع ما كتب ليحذف منه كل ورود لكلمة تم بهذا المعنى الغلط، وإذا كان مصححاً في صحيفة أو دار نشر فعلياً أن يفعل مثل ذلك. ثم على الأساتذة ولا سيما مدرسي اللغة العربية أن ينهوا طلابهم إلى هذا حتى لو كانوا هم أنفسهم من الذين يرتكبون هذا الخطأ.

أكرر أخيراً أن هذا ليس إنكاراً مني لعربية الكلمة كما ظن ذلك بعض من سمعوا اعتراضى على هذا الاستعمال لها؛ إذ لا ينكر عربييتها من له أدنى إلمام بكتاب الله تعالى، لكننا إنما ننكر وضعها في غير موضعها. وقديماً قال سيويه:

«فليس لك في هذه الأشياء إلا أن تجربها على ما أجروها، ولا يجوز لك أن تريد بالحرف [يعني الكلمة] غير ما أرادوا».

(١) هذا يذكرني بصيغة استغربت لها في اللغة الملاوية. كنا في مؤتمر إسلامي بالعاصمة الماليزية، وكانت بعض الأوراق تتلى فيه بلغة القوم، وكنت من الذين يجلسون ويستمعون مع أنني لا أفهم شيئاً. غير أنني لاحظت أنهم يكررون بعض الكلمات مرتين، فيقول أحدهم مثلاً: كتاب كتاب، رسول رسول، ملك ملك. فلما سألتهم عن ذلك أخبروني بأن هذه هي صيغة الجمع عندهم. قلت: أفكلما أردتم جمع اسم كررتم مفردة هكذا مرتين؟ قالوا: نعم! قلت: كيف إذن تترجمون قول الله - تعالى -: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّانِعِينَ وَالصَّانِعَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٣٥]. فضحكوا وقالوا: هذه ندعها كما هي.

(١٥)

## ماذا يعدون لمواجهة المد الإسلامي

(البيان ٢٠٠ - ربيع الثاني ١٤٢٥ هـ - مايو / يونية ٢٠٠٤ م)

الدول الغربية - ولا سيما الولايات المتحدة - حريصة كل الحرص على أن يدوم لها تفوقها المادي (الاقتصادي والعسكري) وتفوقها الثقافي . وهي لا تكتفي لتحقيق هذا باتخاذ برامج داخلية تضمن لها استمرار التفوق ، لكنها تلجأ أيضاً إلى سياسات خارجية تحاول بها عرقلة تقدم أي بلد ترى فيه خطراً على تفوقها في هذين المجالين أو أحدهما . وإذا كانت ترى في الصين واليابان أمارات لمثل هذا التقدم الذي قد يمثل خطراً على تفوقها الاقتصادي ؛ فإنها لا ترى شيئاً كهذا في البلاد الإسلامية ولا سيما العربية منها . إنهم يقولون إن الدخل القومي للبلاد العربية مجتمعة لا يساوي دخل أسبانيا . وقال أحدهم : إذا استثنينا البترول فإن صادرات هذه البلاد لن تساوي صادرات بلد أوروبي صغير كفنلندا . ولكن إذا كانوا يأمنون الآن جانب هذه البلاد من ناحية القوة المادية ، فإنهم لا يضمنون دوامه بغير تدخل منهم ، ولذلك تجدهم يخططون لاستمرار هذا التخلف بوسائل كثيرة ليست هي موضوع حديثنا في هذا المقال .

موضوعنا اليوم هو مخططاتهم لمواجهة الخطر الديني الإسلامي ؛ وذلك أنه بالرغم من تخلف البلاد الإسلامية اقتصادياً وعسكرياً ، فإن الدين الإسلامي هو الذي يمثل التحدي الأكبر للثقافة الغربية ولا سيما بعد سقوط الشيوعية . إن الدين الإسلامي هو باعترافهم الآن أكثر الأديان انتشاراً حتى في البلاد الغربية . بل أقول إنه أكثر انتشاراً لا بالنسبة للأديان فحسب بل بالنسبة لكل الأيديولوجيات وفلسفات الحياة الأخرى ، وليس في البلاد الغربية فحسب بل في سائر بلدان العالم . هذا بالنسبة لهم خطر كبير لا بد من إعداد الخطط للمكربه .

إن تفاصيل مكرهم هذا أمر يطول وصفه ؛ لكننا سنركز حديثنا اليوم على تقرير لمركز البحوث الأمريكى المسمى راند Rand والذي تنشر البيان ملخصاً له<sup>(١)</sup>.

لم أكتف بقراءة هذا الملخص بل اطلعت على التقرير كله في أصله الإنجليزى ، فخطرت ببالي خواطر كثيرة عنه ، منها :

أولاً : أن الخطط التي يوصي بها هي خطط ظل الغرب يتبعها منذ زمن ؛ فالدراسة لم تأت في رأيي بشيء جديد لكنها صرحت بما كان متبعاً وعبرت عنه تعبيراً مفصلاً . إن الإسلام الذي يراه الغرب خطراً عليه هو الإسلام الحق الذي يستمسك به بعض المسلمين بصدق وجد ويحاولون الدعوة إليه ، وهو الإسلام الذي يحبه ويؤمن به إذا عرفه كثير من الناس في الغرب ، إنه إسلام القرآن والسنة . ولذلك تجد أن أكثر من دخل في الإسلام - في الولايات المتحدة على الأقل - إنما دخلوا فيه بعد قراءتهم لترجمة من ترجمات هذا الكتاب العزيز .

ثانياً : ولأن التقرير كان صريحاً ؛ فإنه لا يحاول مخادعة المسلمين ، كما يفعل السياسيون من أمثال بوش أو بليز حين يقولون إن مشكلتنا ليست مع الإسلام ؛ فهو دين سلام ومحبة وتسامح ، وإنما هي مع أقلية من المنتسبين إليه من الإرهابيين أو المتطرفين .

ثالثاً : واضح من الدراسة أن المسلمين مدعوون لا إلى فصل الدين عن الدولة كما هو الحال في الغرب ، ولكنهم مدعوون إلى فصل الإسلام وإبعاده عن الحياة كلها . والتقرير يعترف بأن هذا أمر صعب ، لكنه أمر لا مفر منه فيما يبدو . «إنه ليس بالأمر السهل» يقول التقرير : «أن تبدل ديناً عالمياً كبيراً كالإسلام . إنه إذا كان (بناء الأمة) عملاً مربعاً ، فإن (بناء الدين) أشد خطورة وتعقيداً» . ومما يدل ذلك على جدتهم في محاولة التبديل هذه أن بهذا التقرير فصلاً كاملاً عن الحديث

(١) انظر (ص ١٠٠) من العدد (٢٠٠) مجلة البيان .

النبي يقول فيه عن الحديث : «إنه في أحسن أحواله أمر مريب متناقض لا يمكن الاعتماد عليه في فض النزاع في أي قضية ؛ لأن كلاً من المتنازعين يمكن ان يجد فيه ما يؤيد وجهة نظره». ولذلك فإن التقرير ينصح بإصدار كتيبات تتضمن أحاديث تؤيد وجهات نظر الحداثيين والعلمانيين ، حتى لا يبقى عامة المسلمين ضحية للأحاديث والتفسيرات التي ينشرها بينهم العلماء التقليديون والأصوليون . يعتمد التقرير في هذا على كتابات أقوام معروفين بالزندقة وإنكار السنة .

رابعاً : استغربت حين قرأت هذا التقرير عن أي عالم إسلامي يتحدث؟ أين في العالم الإسلامي أولئك الحداثيون أو العلمانيون الذين لا تتاح لهم فرص النشر ، أو الذين ليست لهم منابر عامة يخاطبون منها الجماهير ، أو الذين لا تؤثر آراؤهم في المقررات المدرسية؟ أليست هذه الأمور كلها في أيدي العلمانيين في بلدان العالم الإسلامي كله إلا ما ندر؟ أليست أنظمة الحكم في كل بلدان العالم الإسلامي -إلا ما ندر- أنظمة لا تخفي علمانيتها؟ عبرت عن استغرابي هذا لأحد إخواننا السعوديين فابتسم وقال : إن هذا التقرير إنما يتحدث عن السعودية . فكرت في محتويات التقرير مرة أخرى فأيقنت أن سهامه موجهة فعلاً نحو السعودية .

خامساً : قلت في نفسي : أخشى أن يظن بعض من يقرؤون هذا التقرير ممن لا يزالون يحسنون الظن بأمثال هذه المؤسسات الغربية أن الديمقراطية التي يدعو العالم الإسلامي إليها هي الديمقراطية بمعنى الرضى بحكم الشعب . أقول لهؤلاء : هبوا أن دولة كالسعودية قالت للغربيين : تريدون ديمقراطية؟ حسناً! فلنعمل كما فعلتم أنتم معاشر الأمريكان . لنضع ممثلين للشعب من كافة مناطقهم الجغرافية ، ولنقل لهم : صوغوا لبلدكم دستوراً كما فعل الأمريكان ؛ ولنفترض أن هؤلاء الممثلين اجتمعوا فكان أول ما ذكروا به أنفسهم واجتمعت عليه كلمتهم أنهم ليسوا سعوديين فقط لكنهم مسلمون أيضاً ، وأن إسلامهم هذا هو جوهر

هويتهم، ومعتمد جماعتهم، ومصدر عزهم وكرامتهم، وسبب تقدير الأمة الإسلامية لهم، وأنهم يؤمنون لذلك بأن دستورهم الأعلى الذي يحكم حياتهم ويهيمن على كل ما يصدر من وثائق هو نصوص الكتاب وصحيح السنة، وأنه ينبغي لذلك أن لا يكون -قرروا- في نظام حكمنا ولا في قوانيننا، ولا في مناهجنا الدراسية، ولا في سياستنا الخارجية، ولا في أي جانب من جوانب حياتنا ما هو مخالف لما في هذين المصدرين. هب أنهم جلسوا بعد ذلك وتداولوا لعدة أسابيع خلصوا في نهايتها إلى صياغة دستور، ثم عرضوه على شعبهم في استفتاء عام، شهد عليه مراقبون محايدون من هيئة الأمم، فكانت النتيجة أن أجازته الأغلبية الساحقة من المواطنين. هل يرتاب أحد بعد هذا في أن هذا الدستور جاء بطريقة ديمقراطية، وأن على من كان يؤمن بالديمقراطية أن يرضى به للشعب السعودي مهما خالفهم الرأي؟ كلاً. ولكن هل تظنون أن الغرب سيرضى أو ترضى أمريكا بذلك؟ كلاً ثم كلاً.

لا تنسوا أنهم لا يتكلمون عن الديمقراطية بهذه الصفة العامة التي ذكرناها، إنهم لا يتحدثون عن ديمقراطية تكون فيها الكلمة للأمة مهما كانت تلك الكلمة. إنهم يريدون نظاماً أشبه ما يكون بنظامهم، وقيماً أشبه ما تكون بقيمتهم ولا سيما في الموقف من الدين ومن العلاقة بين الجنسين. هذه في رأيهم هي الديمقراطية الليبرالية التي لا ديمقراطية حقيقية غيرها. ألا تذكرون ما قال (برير) للعراقيين من أن هنالك خطوطاً حمراء يجب أن لا يتخطاها مجلس الحكم في وضعه لمسودة الدستور، وأن من هذه الخطوط فصل الدين عن الدولة. وأن الديمقراطية التي يريدونها للعراق هي ديمقراطية على المنوال الأمريكي أو الغربي؟ إن شعارهم هو: كونوا أحراراً، لكنكم لن تكونوا في حكمنا أحراراً إلا إذا اخترتم لأنفسكم ما اخترنا نحن لأنفسنا، إلا إذا كانت طريقة حياتكم كطريقتنا، إلا إذا لم يكن في ما اخترتموه ما نرى فيه مهدداً لقيمنا وثقافتنا ومصالحنا. فيما عدا ذلك فأنتم أحرار جد أحرار.

سادساً: مما يدل على هذا أنهم ليسوا راضين حتى عمّن كان من العلمانيين منا غير معجب بهم . يقول التقرير إنه بما أن العلمانيين يؤمنون مثلنا بفصل الكنيسة عن الدولة «فقد كان المفروض أن يكونوا الحلفاء الطبيعيين لنا في العالم الإسلامي . لكن المشكلة كانت وما تزال أن كثيراً من العلمانيين المهمين في العالم الإسلامي لا يوادُّوننا ، بل قد يكونون شديدي العداءة لنا لأسباب أخرى» .

سابعاً: ما الثقافة التي يدعوننا إليها؟ إنها ليست العلوم التي كانت من أسباب تقدمهم المادي ، وإنما هي الكفر والعري والزنا والشذوذ والمخدرات والفردية التي هي من علامات تدهور حضارتهم لا من أسباب قوتها . لذلك تجد بعضهم يقول إنه لا خوف على حضارتنا من حضارة أخرى معاصرة ، وإنما الخوف عليها من الانتحار الذي بدأت تمارسه ويشيرون إلى مثل أنواع السلوك تلك .

ماذا نفعل؟ هل نستجيب ونخنع؟ فوالله لن يزيدهم هذا إلا احتقاراً لنا ، وتمادياً في إذلالنا ، ودأباً على الوقوف في طريق تقدمنا الاقتصادي والتقني والعسكري .

فلنقل لهم : لقد رضينا بأن نعيش معكم في سلام ، وأن من يعتدي على الأبرياء منكم ومنا لا يمثلنا ولا يعبر عن رأينا . لكننا لن نرضى بأن يكون هذا التعايش تعايشاً بين سادة وعبيد ، أو محتلين ومواطنين ، أو منتجين ومستغلين ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج : ٤٠] .

(١٦)

## أمريكا المريضة

(البيان ٢٠١ - جمادى الأولى ١٤٢٥ هـ - يونيو/ يوليو ٢٠٠٤ م)

الولايات المتحدة صاحبة أكبر قوة اقتصادية، وأكبر ترسانة حربية، وأوسع إمكانات إعلامية، لكنها مع ذلك مصابة بداء عضال لا تجدي معه كل هذه القوى وغيرها من إنجاء الأمة مما يصيبها من الهلاك، داء يعلم به ويعترف به كثير من أهلها ويسمون به بالانتحار، وهو اسم مناسب؛ لأن قوة المنتحر لا تعصمه من الانتحار بل قد تعينه عليه. إنه الداء الذي فضحه سجن أبي غريب، داء التدهور الخلقي الجنسي المتسارع. لقد حاول المسؤولون الأمريكيون ومن شايعهم من غيرهم أن يبرئوا الشعب الأمريكي مما حدث، وأن ينكروا أن يكون ذلك الاستمتاع الحيواني بتعذيب المسجونين تعذيباً مرتبطاً كله بالجنس معبراً عما أسموه بالقيم الأمريكية. لكن الحقيقة أن ما حدث لا يمكن أن ينفك عن ذلك الداء العضال الذي تعاني منه الحضارة الغربية كلها، والذي تعمل على نشره في أنحاء العالم كله بما في ذلك العالم الإسلامي.

من أين يا ترى أتى أولئك الفتيان والفتيات الذين ارتكبوا تلك الجرائم الفاحشة، وما نوع التربية التي تلقوها؟ يجب أن لا ننسى أنهم تخرجوا جميعاً في مدارس أمريكية لا ذكر فيها لدين - أياً كان - ولا خلق، ولا فصل فيها بين فتيان وفتيات، ولا إلزام فيها بلباس إلا منع العري الكامل؛ مدارس يتعلم فيها هؤلاء المساكين أن الزنا ليس فاحشة، والشذوذ ليس شذوذاً؛ وإنما هو ميل فطري، وأن الممارسات الجنسية أياً كانت ليس فيها ما يستحيى منه، بل إنما هي نوع من التحرر، وإنهم أبناء بيئة يكاد أمر الجنس يستغرق فيها حياتهم كلها؛ فهو الغالب على الأفلام التي يشاهدون، والقصص التي يقرؤون، والأحاديث التي بها يتلهون، والنكات التي منها يضحكون، والموسيقى والأغاني التي لها يطربون،



ومواقع الشبكة التي فيها يصلون ويجولون، والدعايات التي لها في كل حين يتعرضون. ويجب أن لا ننسى كذلك أنه ليس فيما ارتكبه أولئك الفتية ما تنكره قيم بلادهم سوى أنهم أكرهوا المسجونين عليه. أعني انه ليس في قيم الحضارة الغربية ما ينكر أي نوع من الممارسات الجنسية بكل أنواعها حتى مع الأقارب إذا كان عن رضئ، وإنما الجريمة أن يمارس بغير رضئ حتى مع زوجة. ولعلكم تذكر أنهم لم يجدوا شيئاً يأخذونه قانوناً على رئيسهم السابق فيما فعله مع تلك الفتاة سوى أنه كذب عليهم.

لكن الله - تعالى - لم يحرم ما حرم من الفواحش عبثاً، وإنما حرمها لما ينتج عنها من آثار ضارة بل مدمرة لكل أمة تصر على الاستمرار فيها. وكثير من علماء الاجتماع الغربيين يعرفون بعض هذه الآثار ويحسونها، لكن الكثيرين منهم يظلون إزاءها حائرين بآثرين لا يدرون ما يصنعون. وقد كنت كتبت في هذه المجلة المباركة مقالين لخصت فيهما كتاباً للمؤلف الأمريكي الشهير (فوكوياما) أرجع فيه أسباب التفكك الاجتماعي الذي تعاني منه الدول الصناعية كلها إلى تفكك الأسرة، وأرجع تفككها إلى الخيانات الزوجية التي أدت إليها أسباب ثلاثة:

١ - فكر شاع في الثمانينيات يشجع الممارسات الجنسية غير المقيدة باعتبارها نوعاً من الحرية.

٢ - حبوب منع الحمل.

٣ - اختلاط الرجال بالنساء في أماكن العمل.

لكنه نسي شيئاً أهم من هذا كله هو ضعف الوازع الديني الذي أدى إليه تغلغل العلمانية. وإذا كان (فوكوياما) إنما يكتب باعتباره عالم اجتماع يسجل ولا يميل إلى النقد أو التوجيه؛ فإن بعض المتدينين والحادين على الأخلاق يعبرون عن سخطهم الشديد لما آل إليه أمر بلادهم. فهذا هو أحدهم يقول: «إن

معظم العالم اليوم يتأمر بك بسرعة ؛ لكن عبارة (تأمر ك) صارت تعني يمارس الزنا واللواط ومنع الحمل والإجهاض والقتل الطبي»<sup>(١)</sup>. وإذا كان هذا الفيلسوف الكاثوليكي يعبر عن أسفه لما آل إليه أمر بلاده، فإن الطبية (مج ميكرو) المختصة بالمراهقين تنادي أمتها بحقائق مقلقة ؛ ولكن لا حياة - فيما يبدو - لمن تنادي . تعلن هذه الطبية على غلاف كتابها المسمى : (الوباء)<sup>(٢)</sup>، أن الأمراض المتقلبة عن طريق الممارسات الجنسية تصيب ثمانية آلاف مراهق في كل يوم (وهي تتحدث عن أمريكا وحدها)، وتذكر من تفاصيل هذه الممارسات وسعة انتشارها وسيطرتها على حياة هؤلاء المساكين ما يثير الغثيان . وهي لا تقصر دراستها على الأمراض الجسدية، بل تتعرض لما تسببه من أمراض نفسية . وتخلص من دراستها إلى أنه لا وقاية من هذه الأمراض إلا بالكف عن الممارسات الجنسية مع غير الزوجة . لكنها تشكو خلال كتابها من أنه مع ظهور ما ذكرت من حقائق علمية فإن الثقافة السائدة - بل وتوجيهات المسؤولين التربويين - تغري الشباب بهذه الممارسات غير المنضبطة . وتوافقها على هذه الشكوى امرأة مشهورة هي الدكتورة (لورا اسلنسجر) إذ تقول في تقريرها لهذا الكتاب : «إن أولادنا يسمعون من شخصيات مرجعية مثل الأطباء والمعلمين ورجال الدين أن لهم الحق في تعبيراتهم وتجاربهم الجنسية . يقال لهم : إن أنواع السلوك هذه مفيدة لهم، وأنها لا تؤذيهم . لكن نفسياً وروحياً وطبياً فإن كل هذه أكاذيب» ثم تنصح الوالدين بقراءة هذا الكتاب لينقذوا أولادهم .

ويزداد فهمنا لخطر هذه الإباحية حين ندرك أن سنن الله الاجتماعية تربط بين كل أنواع الشرور؛ فكأنها كلها آخذ بعضها برقاب بعض كلما دُعيت واحدة منها

(1) Peter Kreeft, Ecumenical Jihad: Ecumenism and the Culture War, Ignatius, San Francisco, 1994, p. 11.

(2) Meg Meeker, M.D. Epidemic: How Teen Sex is Killing our Kids, life Line Press, Washington, 2002.

أتت ومعها بعض أخواتها . ولهذا فإن ربنا يصف عباد الرحمن بأنهم : ﴿ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ .

[ الفرقان : ٦٨ ] .

فطلاب المدارس والجامعات في أمريكا لا يمارسون تلك الأنواع من الانحرافات الجنسية فحسب ، بل يتعاطون معها المخدرات ، ولا يبالي كثير منهم بإلحاق الأذى الجسدي بزملائه - بل وأسأذته - من الذكور والإناث ؛ حتى إن الأساتذة لا يدخلون الفصول في بعض المدارس إلا وهم مسلحون ! وأنت لا تستغرب هذا حين تقرأ في كتاب ربك أن قوم لوط لم يكونوا يأتون في ناديهم المنكر فحسب ، بل كانوا يقطعون السبيل ، وكانوا يخرجون من قريتهم كل أناس يتطهرون .

قل لي بربك : أي الفريقين أولى - مع هذا - بإعادة النظر في مناهجه الدراسية وفلسفته التربوية ؟

قد يحتج قائل بأن ما ذكرناه ليس قاصراً على أمريكا ؛ بل إن بعضه يوجد في غيرها ولا سيما إسرائيل . ونقول : نعم ! وقد يقولون : إن شيئاً منه يوجد حتى بين شباب المسلمين . ونقول أيضاً : نعم ! بل نقول : إن هذه الانحرافات هي من نتائج الثقافة الجاهلية ، وأن الشياطين توحى بها إلى أوليائها وحيماً مباشراً ، ولا تحوِّجهم إلى أن يقلدوا فيها غيرهم . ألم يقل الله - تعالى - محذراً عباده : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ﴾ [ الأعراف : ٢٧ ] ؛ فهذا هو السبب الأساس للميل للتعري في كل الثقافات الجاهلية . لكن مشكلة الغرب أن شياطين الإنس فيه انضموا إلى شياطين الجن في دعوتهم الناس إلى هذه الفواحش وتصويرها على أنها من مقتضيات العصر التي لا يكتمل تحضر أمة إلا بها . لذلك قد تجد نساء عفيفات يُخدعن بهذه الحجة فيكشفن شعورهن وصدورهن ، وما علمن أنهن بهذا يبدأن الخطوة الأولى في الانحدار إلى نوع تلك الهاوية التي ينحدر إليها الغرب .

(١٧)

## الإسلام السياسي

(البيان ٢٠٢ - جمادى الآخرة ١٤٢٥ هـ - يوليو/ أغسطس ٢٠٠٤ م)

عبارة (الإسلام السياسي) كأختها (الأصولية) صناعة غربية استوردها مستهلكو قبائح الفكر الغربي إلى بلادنا وفرحوا بها ، وجعلوها حيلة يحتالون بها على إنكارهم للدين والصد عنه . فما المقصود بالإسلام السياسي عند الغربيين؟ كان المقصود به أولاً الجماعات الإسلامية التي انتشرت في العالم العربي وفي باكستان والهند وأندونيسيا وماليزيا وغيرها تدعو إلى أن تكون دولهم إسلامية تحكم بما أنزل الله تعالى .

### • ما الذي يأخذه خصوم الإسلام السياسي عليه؟

أما الغربيون فاعتبروه أولاً ظاهرة غربية بعد سني الحكم الاستعماري الذي ظنوا أنه وطّد الحكم العلماني على المنهاج الغربي ، ووضع أسساً متينة للتبعية وضمان المحافظة على المصالح الغربية . فشق عليهم أن تنبت في بلاد المسلمين نابتة تعارض هذه العلمانية التي يرونها تعم العالم بأسره . كيف تنشأ جماعات تسير عكس هذا التيار العالمي ، وتدعو إلى الرجوع إلى حكم ديني إسلامي؟

وثانياً : لأن الرأي السائد بينهم - لا أقول الذي يعتقد كل واحد منهم - هو أن الدين ينبغي أن يكون شأناً فردياً بين العبد وربّه ، لا مدخل له في الحياة العامة ولا سيما السياسية منها التي يرون أن تكون متروكة لما يراه الناس ، وأن تكون مبنية على المساواة الكاملة بين المواطنين بغض النظر عن معتقداتهم .

وثالثاً : لأن الرأي الشائع بينهم أن النصوص الدينية محدودة بزمانها ومكانها الذي ظهرت فيه ، وأنها لذلك ينبغي أن لا تفهم على ظاهرها ، بل يجب أن تؤوّل تأويلاً يجعلها متناسبة مع ثقافة العصر .

ورابعاً: لأن منهم من ظن أن الدعوة إلى الحكم بما أنزل الله - تعالى - ظاهرة جديدة لم تكن في الإسلام من قبل؛ فلذلك ناسب أن توصف بالإسلام السياسي تمييزاً له عن الإسلام الديني.

وخامساً: لأنهم رأوا فيها صورة من صور استغلال الدين للمآرب السياسية. لهذه الأسباب وأمثالها كانوا وما يزالون شديدي العداء الفكرية والعملية للجماعات التي تتسم بما أسموه بالإسلام السياسي، يحرشون الحكومات عليها، ويدعونها لكبتها حتى لو كان ذلك على حساب الديمقراطية التي كانت سائدة آنذاك في العالم الإسلامي، والتي استفادت منها تلك الجماعات. ويكتبون الكتب والمقالات، ويسخرون سائر وسائل الإعلام لحربها. ينصرهم في هذه الحرب أذئابهم المنافقون في بلاد المسلمين الذين يقتاتون على فضلات فكرهم ودعائياتهم. وقد امتدت حربهم في أيامنا هذه للدول التي تؤمن بمبدأ تطبيق الشريعة.

ولما كان الغربيون يرون أن ما هم عليه من دين أو فكر أو ثقافة أو حتى عادات في المأكل والملبس والجد واللعب، بل وما كان لهم من تاريخ وما مارسوه من تجارب، وسائر ما ألفوا من جوانب الحياة، هو الأمر الطبيعي، وأن ما خالفه هو الشذوذ الذي يحتاج إلى تفسير؛ فقد اجتهد بعضهم في أن يجد تفسيراً لهذه (الظاهرة). فكان مما سلّوا به أنفسهم أنها نتيجة لظروف طارئة هي الحكم القهري والتخلف الاقتصادي والضعف العسكري الذي ابتليت به البلاد التي ظهرت فيها هذه الحركات ولا سيما العالم العربي، وأن علاجها لذلك هو الضغط على تلك الحكومات لتكون أكثر انفتاحاً وديمقراطية، ومساعدتهم على شيء من النمو الاقتصادي يحسن من أوضاع الشباب المتذمرين؛ فإذا ما حدثت هذه الإصلاحات، وزالت الأوضاع القديمة زالت بزوالها نتائجها التي من أهمها ظاهرة الإسلام السياسي.

ونقول إن ما ذكره من أسباب ربما كان فعلاً من عوامل تشجيع ما يسمونه بظاهرة الإسلام السياسي، لكن مما لا شك فيه أنه ليس منشأها. فكل من له أدنى معرفة بدين المسلمين وتاريخهم يعلم أن قضية الالتزام بما أنزل الله في شؤون السياسة والحكم هي أمر عريق فيه: في نصوص كتابه، وسنة نبيه، وأقوال علمائه. وأن تصديق ذلك في واقعه التاريخي الذي لم يعرف شيئاً اسمه الحكم العلماني، وأن هذا الحكم إنما فرض عليه من خارجه يوم استولت جيوش الغرب على بلاده. وحتى هذه العلمانية الدخيلة لم تبلغ مبلغ علمانيتهم في مدى بُعدها عن الدين، حتى إن الكثيرين منهم لينفون أن تكون حكومة من حكومات العالم الإسلامي علمانية، ويرون أنه من الخطأ لذلك أن توضع الإسلامية (بمعنى النشاط السياسي للحركات الإسلامية) في مقابل العلمانية<sup>(١)</sup>.

وإذن فالقول بأنها مجرد استغلال للدين لتحقيق أهداف سياسية ليس بصحيح أيضاً: أولاً: لأن من أعظم من دعا إلى الحكم بما أنزل الله وبيّن أنه جزء لا يتجزأ عن دين الإسلام علماء أعلام لم تكن لهم أطماع سياسية، ولا كانت لهم في يوم من الأيام علاقة بالأحزاب الإسلامية السياسية؛ علماء من أمثال: الشيخ محمد بن إبراهيم، والشيخ محمد أبو زهرة، والشيخ محمد الأمين الشنقيطي، والشيخ عبد العزيز بن باز.

هل استغل بعض الأفراد وبعض الجماعات الدين لتحقيق أهداف دنيوية سياسية أو غير سياسية؟ نعم! وقد ظل كثير منهم يفعل ذلك على مر التاريخ، ومع كل رسالات السماء. ولا أعرف كتاباً تطرّق لهذه المشكلة وبيّن أسبابها وأنواع مرتكبيها ونتائجها وحذر منها مثل كتاب الله تعالى. فعلى الذين يتحدثون عن هذه المشكلة أن يعلموا أنهم لم يأتوا بجديد. إن هؤلاء يدعوننا لأن نترك

(١) انظر مثلاً:

ديننا؛ لأن بعض الناس استغله لأسباب سياسية. ولو تابعنا منطقهم هذا لتركنا بناء المساجد؛ لأن بعض المنافقين استغل بناءها لأسباب سياسية، فاتخذها: ﴿ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾.

[التوبة: ١٠٧].

وكانوا مع ذلك يحلفون بأنهم ما أرادوا إلا الحسنى: ﴿وَلِيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى﴾ [التوبة: ١٠٧].

ولو اتبعناه لتركنا الإنفاق في سبيل الله؛ لأن بعض الناس يتخذ ما ينفق مغرمًا (أي غرامة) ويتربص بنا الدوائر، ولقررنا أن لا يكون لنا علماء؛ لأن بعض علماء السوء يستغل علمه لأغراض دنيوية: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [٩٨] وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سِذْخُلَهُمْ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [٩٩] وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٩٨ - ١٠٠].

وكما أن بعض الناس يستغل الدين لتحقيق أهداف سياسية فيكون انحرافه بسبب سوء قصده، فإن آخرين ينحرفون بسبب سوء فهمهم وقلة علمهم، فيحاولون تحقيق بعض الأهداف السياسية بوسائل وطرق مخالفة لدين الله وتحريفًا له وفتنة للناس عنه؛ فهل نترك العمل السياسي على أساس ديني؛ لأن بعض الناس يسيء فهم الدين؟

يقول بعض الغربيين: (لكن المشكلة أن كل إنسان يمكن أن يدعي أن فهمه هو الفهم الصحيح للتوراة أو الإنجيل أو القرآن، بل يزعم بعضهم أنه [يعني القرآن] كالكتاب المقدس: العهد القديم والعهد الجديد - بإمكانك أن تجد فيه أيًا ما تريد

لتسوِّغ به كل ما تريد تقريباً<sup>(١)</sup>، نقول: فرق بين أن يدَّعي مدَّع أن ما استدل به من قول يدل على ما يريد وأن يكون دالاً فعلاً على ما يريد. أما القرآن فنحن نعلم أنه - وهو كتاب الله - لا يمكن أن يدل على الشيء ونقيضه ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

يقول بعضهم: «إذا سلَّمنا بهذا فتبقى مشكلة هي أن النص بحسب معناه الذي تدل عليه ألفاظه ويدل عليه سياقه لا يتناسب مع ثقافة العصر؛ فلا بد إذن من تأويله لجعله مناسباً معها. لكن أليست هذه دعوة إلى خداع النفس؟ أنت تقرأ نصاً تقول: إنه كلام الله، وتفهمه على وجهه الصحيح، ثم تقول: إن هذا الذي فهمته لا يتناسب مع ما أريد، لذلك يجب أن أغيِّره لكي أجعله مناسباً مع ما أهوى، ثم تقول: إن هذا الذي هويت هو ما عناه الله - تعالى - بكلامه. هل يقول هذا إنسان مؤمن؟ بل هل يقول هذا إنسان أمين يحترم نفسه؟ إنك إما أن تعتقد أن ما يقوله الله هو الحق كما قاله، وإما أن تعتقد أنه ليس بالحق أو ليس بالعدل، فتقول: إنه لا يمكن أن يكون كلام الله، فتكفر بالكتاب الذي كنت تظن أنه كلام الله. أما أن تجمع بين الفهم الصحيح والتحريف فلا. وهذا الأمر المنكر خلقاً وديناً هو الذي حذرنا الله - تعالى - من الاطمئنان إلى ممارسيه: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

تأمل قوله - تعالى -: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي إنهم فهموا ما قال الله - تعالى - وتصوروه على وجهه الصحيح، ثم عمدوا إلى تحريفه وهم يعلمون أنهم محرفون له.

ثم نقول: إن الدين الحق إنما جاء لنفع الناس في دنياهم وآخرتهم، فلا يمكن

(1) Graham Fuller, The Future of Political Islam, Carnegie Council on Ethics and international Relations, www.ccia.org., p. 4.



أن يكون فيه ما يمنع من الأخذ بشيء هو من ضرورات العصر، أما أهواء العصر وما يشيع فيه من قيم وأفكار وعادات وتقاليد فإن الدين لم يأت لموافقتها، بل جاء لإقرار ما فيها من حق وإنكار ما فيها من باطل؛ فالمعيار هو كلام الله لا أهواء البشر.

ثم إن كثيراً مما يسمى بثقافة العصر مما يخالف الدين الحق ليس هو في حقيقته بالأمر الجديد الذي يقال إنه مما امتاز به عصرنا، وإنما هو الثقافة التي اتسمت بها الجاهلية على مر العصور. خذ مثلاً استبشاعهم للحدود - ولا سيما حد الزنا - ودعوتهم إلى تغييره. هذا الحد موجود في التوراة، لكن اليهود غيروه حتى قبل مجيء النبي محمد ﷺ، وكان الذي دعاهم إلى ذلك هو فُشُوُّ الزنا بينهم ولا سيما في أشرفهم. وهذا هو عين السبب الذي يدعو الغربيين وأمثالهم إلى استبشاع هذا الحد. إن الناس إذا فشت فيهم الفاحشة واعتادوها مات فيهم الشعور بأنها فاحشة، ودعك أن تكون جريمة تستحق هذا العقاب الأليم!

\* \* \*

(١٨)

## الدين دينان: منزل من السماء.. و متخذ في الأرض

(البيان ٢٠٣- رجب ١٤٢٥ هـ - أغسطس / سبتمبر ٢٠٠٤م)

الدين دينان ينبغي أن لا نخلط بينهما فنحكم بأحدهما على الآخر، أو نستنتج من أحدهما نتائج ونسحبها على الآخر، أو نبني سياسة عملية على أحدهما حقها أن تبني على الآخر.

الدين بالمعنى الأول هو الدين المنزل من السماء، المبلّغ للناس عن طريق رسل الله. والدين بالمعنى الثاني هو ما يدين به الناس في الواقع فيما يعتقدون من عقائد، أو يلتزمون به من قيم، أو يمارسون من سلوك.

الدين بالمعنى الأول هو الحق كله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وأما الثاني فيكون حقاً بقدر مطابقته للأول وباطلاً بقدر مخالفته له. وما يترتب عليه من نتائج يكون بقدر تلك الموافقة أو المخالفة.

هذا الدين هو المشار إليه في مثل قوله - تعالى -:

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩].

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣].

وأما الدين بالمعنى الثاني فهو أيضاً أنواع:

نوع هو الممارسة البشرية للدين الحق المنزل من السماء، وهو المشار إليه في مثل قوله - تعالى -:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

[يونس: ١٠٤].

﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبَدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ [الزمر: ١٤].

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥].

المثل الأعلى لهذا الدين هو ما كان يدين به الرسول ﷺ الذي كانت حياته المباركة - بأبي هو وأمي - كلها ترجمة عملية للدين الحق. مَنْ غير الرسول ﷺ يمكن أن يقال عنه: (كان خلقه القرآن)؟ الرسول هو الذي شهد الله له بأنه على صراط مستقيم، وأنه يهدي إلى صراط مستقيم، وأن من أطاعه اهتدى، ومن عصاه غوى.

وأما غيره ﷺ فيقتربون من هذا المثل الأعلى، ويتعدون بقدر ما آتاهم الله من علم بالدين الحق، وصدق في القصد. وقد يؤدي الجهل ببعضهم إلى أن يتركوا من الدين جزئيات لا يعلمون أنها منه، أو لا يقوون على ممارستها، وقد يزدون عليه جزئيات يظنون أنها منه، لكنه نقصان وزيادة لا تخرجهم عن أصل الدين، أو تجعلهم من الكفار أو المبتدعين. والمثل الأعلى لهؤلاء هم أصحاب رسول الله ﷺ، ثم من سار على نهجهم، واستن بسنتهم من أئمة أهل السنة والجماعة.

ونوع هو خليط من الدين الحق والدين الباطل: ولعله هو المشار إليه في مثل قوله - تعالى -: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ٢٤].

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾.

[النساء: ١٧١].

﴿أَفْتَرُمُونِ بَعْضُ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥].

هؤلاء أقوام ينتسبون إلى كتب الله المنزلة، إلى الدين الحق، لكنهم يزدون عليه أموراً من اختراعهم أو اختراع غيرهم. فإذا كانت من النوع الذي ينقض ما

جاءت به رسل الله أخرجتهم عن الدين الحق مهما كان القدر الذي استمسكوا به منه . يدخل في هذا النوع اليهود والنصارى الذين كذبوا رسول الله ، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، ونسبوا إلى الله الولد ، وغير ذلك . ولكن يدخل فيه أيضاً كل من انتسب إلى الإسلام ، وسلك مسلكهم باعقادات ، أو أعمال هي من نواقض الإيمان .

ونوع من الدين لا علاقة له بالدين المنزل من السماء البتة ، وإنما هو من اختراع الناس ، وهو المشار إليه في مثل قوله - تعالى - :

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون : ٦] .

﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران : ٨٥] .

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ ﴾ [آل عمران : ٨٣] .

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ [الشورى : ٢١] .

يدخل في هذا أديان المشركين من العرب ، كما يدخل فيه من أهل زماننا أصحاب كل ما يسمى بالأيديولوجيات التي هي من اختراع البشر كالشيوعية والعلمانية . ولا تستغربن تسميتنا لها بالدين ؛ لأن الدين في لغة العرب وحكم القرآن هو كل منهاج للحياة يجعله الإنسان ديناً له مهما كان نوعه .

ما الذي نستفيده - نحن المسلمين - في عصرنا هذا من التمييز بين الدين المنزل من السماء ، والدين الذي نمارسه في واقعنا ونسميه إسلاماً؟

مما نستفيده أولاً : إدراك صحيح لمفهوم تجديد الدين ، فنذكر أن الدين الذي يجدد هو الدين الذي نمارسه لا الدين الذي أنزله الله تعالى ؛ لأن الدين الذي يلى ويحتاج إلى تجديد هو الدين الممارس في الواقع لا الدين المنزل من السماء . وتجديد الدين الممارس إنما يكون بجعله - بقدر اجتهاد المجتهدين وقبول المخاطبين - موافقاً للدين الحق المنزل من السماء . لكن بعض الناس في زماننا يجنحون إلى

عكس ذلك تماماً، فيحرفون الدين المنزل من السماء ليوافق ممارسات المسلمين، بل وممارسات الكافرين؛ بحجة جعل الإسلام صالحاً لكل زمان ومكان. ينسى هؤلاء أن ما يميز الإسلام المنزل من السماء هو صلاحيته كما هو لكل زمان ومكان. ولو أن هذه الصلاحية كانت لا تتأثر إلا بزيادة عليه ونقصان منه لما كان له فضل على غيره من مذاهب الحياة والأديان؛ لأن كل دين وكل مذهب في الحياة يمكن أن يغير فيه، ويبدل لكي يكون موافقاً للأهواء الشائعة في عصر من العصور. فالدين الحق صالح لكل زمان ومكان لا بمعنى موافقته لما يشيع في العصر من أهواء، بل لموافقته لما يصلح الإنسان - من حيث هو إنسان - في كل زمان ومكان؛ لأنه وإن كان قد نزل على رسول الله في زمان معين ومكان معين إلا أنه ليس مرتبطاً بذلك الزمان وذلك المكان. كيف لا، والرسول النبي الخاتم ﷺ إنما أرسل للناس كافة رحمة للعالمين؟

ومما نستفيدة ثانياً: أن نحلل واقعنا تحليلاً صحيحاً، نعزو به النتائج إلى أسبابها الحقيقية المتمثلة في الدين الواقعي الذي تدين به مجتمعاتنا، بكل ما فيه من شرك وبدع وانحرافات، فلا نبني هذه التحليلات على افتراض أن ما تدين به هذه المجتمعات مطابق للدين الذي أنزله الله؛ لأنها تسمى بالمجتمعات الإسلامية. هنا أيضاً ضل بعض الناس بسبب هذا الافتراض سواء كان عن جهل أو عن غرض، فصاروا ينسبون إلى الدين الحق كل ما تعانيه الأمة من أمراض في التخلف الاقتصادي والصناعي، بل والفكري. قاد هذا التحليل المضلل جماعة من المفكرين الغربيين، ثم تبعهم فيه جماعة من المقلدين لهم من أبناء العالم الإسلامي.

إليك مثلاً ما قاله بعضهم عن ظاهرة الحكم الاستبدادي وعدم الديمقراطية في العالم العربي.

كتب أحدهم في مجلة تعد من المجلات الفكرية الرصينة عندهم يقول: إن

السبب في أن المرشح للرئاسة يجب أن يكون شخصاً واحداً، وأنه يجب أن يحصل على أكثر من تسعين بالمئة من الأصوات هو إيمان المسلمين بمبدأ الإجماع! وقال آخر إن السبب في عدم معارضة المسلمين للحكام المستبدين هو أن دينهم قائم على فكرة الاستسلام لله!

وقال ثالث: إن السبب في هذا هو أن هنالك علاقة قوية بين الديمقراطية والعلمانية التي تقتضي تقديم العقل على النص، لكن الدين الإسلامي لا مجال فيه لهذا. هذا مع أن فقهاء المسلمين ما زالوا يكررون أنه إذا كان النص صحيحاً فلن يخالف عقلاً حتى نضطر لتقدمه عليه؛ لأن المخالف للحق هو بالضرورة باطل. وكلام الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

كل هذه التفسيرات بالإضافة إلى سخفها قائمة على افتراض باطل هو أن المسلمين الذين عانوا من ويلات الاستعمار، ويعانون من أمراض التخلف الاقتصادي والتقني، ويرزحون تحت حكم دكتاتوري هم أناس عالمون بدينهم الذي جاء به رسولهم، مخلصون في الاستمسك به، وأن أولئك المستبدين إنما صاروا كذلك؛ لأنهم يعتقدون أن هذا مما يأمرهم به دينهم الذي هم حريصون على تطبيقه في دولهم.

مما نستفيده ثالثاً: أمر يتعلق بتطبيق الشريعة. إن كثيراً من إخواننا الذين نحسبهم صالحين يفترضون في مناداتهم بتطبيق الشريعة أن مجتمعاتهم مجتمعات كاملة في إسلاميتها، وأنه يمكن لذلك أن يطبق عليها كل ما تقتضيه الشريعة من أحكام كما كان الأمر في زمان الخلافة الراشدة. لو كان هذا الافتراض صحيحاً لما زال الحكم الإسلامي أصلاً، ولما اضطررنا للمناداة بالعودة إليه. فعلينا إذن أن نتعاون مع من نحسبه مخلصاً من حكامنا في العودة بنا إلى الالتزام بما أنزل الله تعالى؛ بأن نعترف بأن في الأمة أمراضاً وانحرافات وجهاً، فتدرج في العودة بها إلى الدين الصحيح مقدمين الأهم على المهم. أنا أعلم أن

بعض المنافقين اتخذوا من مبدأ التدرج ذريعة إلى الدعوة إلى الإعراض عن الدين ؛ مع أن التدرج - كما يدل عليه لفظ الكلمة - إنما هو رقي الدرج ؛ فمن وقف بعيداً عن الدرج لا يعد متدرجاً . لا بد إذن من البداية ومن الرقي بحسب حال المجتمع الذي يراد له أن يحكم بشرع الله . فالمجتمعات الإسلامية تختلف اختلافاً كبيراً في قربها وبعدها من الدين الصحيح . فكلما كان المجتمع إلى هذا الحق أقرب كان الرقي به أسهل وأسرع .

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل .

\* \* \*

(١٩)

## عبر من فتنة دارفور

(البيان ٢٠٤ - شعبان ١٤٢٥ هـ - سبتمبر - أكتوبر ٢٠٠٤ م)

كثيراً ما نردد القول بأن الإسلام منهاج حياة متكامل، وهو قول صحيح، لكننا قلما نهتدي بهذا الدين في شؤون حياتنا كلها، ولا سيما ما كان منها متعلقاً بالحياة الاجتماعية والسياسية. إننا كثيراً ما نتصرف في هذا الجانب من حياتنا وكأن الإسلام لا قول له فيها ولا هدي، بل كثيراً ما نقتدي فيه بما هو شائع في عصرنا من فكر ولا سيما الفكر الغربي. ولو أننا اهتدينا في هذا المجال بهدي ربنا وعددناه أمراً لازماً لنا باعتبارنا مسلمين، لتجنبنا كثيراً من المشكلات، ولكانت حياتنا أحسن وأسعد.

خطر ببالي هذا وأنا أتأمل فتنة دارفور التي صار السودان لا يُعرف إلا بها. تأملت بعض ما حدث فخطر ببالي:

أولاً: أننا كثيراً ما ننسى أمر الله - تعالى - لنا بالشورى، وأن لا يستبد أحد أو أفراد منا بالبت في أمر يهم غيرهم كما يهمهم. كان الخلفاء الراشدون من أكثر الحكام استشارة للناس وكانوا - كما ثبت عنهم - أكثر استشارة لهم في أمر الحروب؛ وذلك لأن الحرب شأن يهم كل إنسان لما له من تأثير قد يكون كبيراً على حياته. لكن إخواننا من أبناء دارفور الذين أشعلوا نار الفتنة هذه لم يروا أن من حق أهليهم عليهم أن يستشيروهم قبل إقدامهم على أي عمل عسكري. ماذا يفعل أهليهم هؤلاء الذين لم يستشاروا، والذين قد لا يرون ما رأوا؟ هل يدخلون في حرب معهم أم هل يرضون بأن يستبدوا بالأمر دونهم؟

ثانياً: لو أنهم - وهم المسلمون - اهتدوا بهدي دينهم لعلموا أن رسولهم ﷺ نصحهم بأنه ما كان الرفق في شيء إلا زانه، ولا كان العنف في شيء إلا شانه،



ولبدؤوا لذلك بسلوك طرق الرفق في محاولتهم لما يريدون من رفع ظلم يروونه واقعاً على منطقتهم .

ثالثاً: ولو كانوا يهتدون بهدي دينهم لعلموا أن من أكثر ما حذر منه الرسول ﷺ وأئمة السنة من بعده هو الخروج المسلح على السلطة المسلمة الحاكمة . ولم يحذر الرسول من هذا إعانة للحكام الظلمة - حاشاه - وإنما حذر منه لعلمه ﷺ بأن ما ينتج عن مثل هذا الخروج من مفسد هو أضعاف ما يرجو الخارج تحقيقه من مصالح . لكن إخواننا الذين أقدموا على هذا الخروج إنما تأسوا فيه بسنة قرنق . قولوا لي بربكم : ماذا حقق قرنق؟ نعم لقد اضطرت الحكومة لمصالحته ، بل لأن يكون نائباً أول لرئيس الجمهورية . لكن ما الثمن الذي دفعه أهل السودان جنوباً وشمالاً في مقابل ذلك؟ هلاك مليونين أو أكثر ، وتشريد الجنوبيين أيدي سباً ، حتى إن عددهم بشمال السودان صار أكثر منه بجنوبه؟ أهذا عمل يُقدم عليه إنسان في قلبه رحمة لأبناء بلده ، أو حرص على مصالحتهم؟ وماذا حقق الخارجون من أبناء دارفور؟ موت المئات ، وتشريد الآلاف ، وحرق القرى وضياع الأموال ، ثم التهديد بالوباء؟ هب أن الضغوط اشتدت على الحكومة وأنها اضطرت لمصالحتهم وإعطاء قادتهم ما أعطي قرنق؛ أذلك ثمن يدفعونه للحصول على هذه الجائزة؟ وعلى فرض أن الحكومة كانت مسؤولة عن الضرر الذي سوغوا به الخروج عليها؛ فهل كان ذلك الضرر أكبر من هذا الذي وقع بسبب فتنة الخروج؟

رابعاً: ألا يحزن إخواننا الذين تسببوا في هذه الفتنة على التشويه الذي أصاب سمعة بلد كان أجدادهم ولا يزال معاصروهم من صنّاعه والمدافعين عن أرضه ودينه؟ أيحسبون أن هذا التشويه لسمعة بلادهم لا يصيبهم كما أصاب غيرهم؟ أليس من ضيق الأفق أن يظن أن هذا كله أمر لا يشين إلا سمعة حكومة هم أعداؤها؟

خامساً: وإذا كانوا قد رأوا أن من حقهم أن يثوروا ثورة مسلحة على حكومة بلادهم؛ فكان ينبغي أن يتوقعوا أن يهباً لمساعدتها خصومهم المناصرون لها. لكننا نبادر فنقول: إنه إذا كان من حق هؤلاء الخصوم أن يدافعوا عن حكومة مشروعة، فليس من حقهم أن يتجاوزوا الشرع في دفاعهم عنها. ليس من حقهم أن يحرقوا القرى، ولا أن يعتدوا بالقتل على الأبرياء، ولا يجلوا المسالمين من الرجال والنساء والولدان. وإذا صح أنهم تجاوزوا ذلك بالاعتداء الجنسي على نساء مسلمات فليعلموا أن هذا ظلم لا يجوز ارتكابه حتى في حق الأعداء من الكفار. وعلى الدولة أن تعاقب كل من ثبت ارتكابه لمثل هذه الفظائع.

سادساً: نقول كل هذا على افتراض أن ما حدث من خروج كان بدوافع الغيرة والحرص على مصلحة الأهل ورفع الظلم عنهم. أما إذا صح ما يقال من أن كل هذا إنما كان لتحقيق مآرب سياسية حزبية وإحراج حكومة هم من خصومها أو أعدائها أو ضد توجهها الإسلامي؛ فإن الأمر يكون أفظع والجريمة تكون أكبر.

سابعاً: رأيت كيف فرح أعداء المسلمين بهذه الفتنة (التي يقال إنهم من صناعها) وكيف تداعوا إلى استغلالها، وكيف صوروها بغير صورتها من أنها تطهير عرقي، وأنها حرب بين العرب والأفارقة، وأنها من صنع حكومة عربية إسلامية لا تراعي في أعدائها الأفارقة ديناً ولا إلاً ولا ذمة، وأنهم إنما تداعوا للدفاع عن هؤلاء المظلومين، والانتقام لهم من حكومتهم الظالمة بالضغط عليها وتهديدها، وربما باتخاذ هذا ذريعة لغزو السودان وإعادة استعمارها، ولكن باسم بعض الأسماء من أبناء وطنه كما حصل في أفغانستان والعراق؟

أحدث عن تطهير عرقي في بلد عقد صلحاً مع قرنق ليكون نائباً أول وهو رجل ليس فيه قطرة من دم عربي؟ أحدث عن عرب وأفارقة في وصف قوم يصنفون جميعاً - عند الأمريكيان - بأنهم سود؟ أحدث عن دولة تعتدي على فئة من مواطنيها وهي فئة يزخر بها جيشها وتزخر بها عاصمتها، وتشارك في

حكومتها وحزبها؟ ما بالهم لم ينبسوا ببنت شفة حين حركت حكومة كليتون قواتها عام ١٩٩٣م لتحاصر فئة من أبناء بلدها في مدينة واكوا بتكساس كانت عصت أمر الحكومة بتسليم أحد أعضائها، فكان عقابها أن قطعت تلك القوات الماء والكهرباء عن القاعة التي كانوا معتصمين بها، ثم نفخت فيها غازاً التهاب فأحرق كل من كان فيها من الرجال والنساء والأطفال البالغ عددهم أربعة وسبعين نسمة. وقد قيل إن حادثة أو كلاهما إنما كانت انتقاماً لهؤلاء المساكين. وما بالهم لا يعترضون على الآلاف من مواطني العراق الذين تعتدي عليهم قوات اجنبية أمريكية أو بريطانية؟ السبب هو أننا قوم ضعفاء سلاحاً واقتصاداً، وأن هؤلاء قوم لا يحترمون إلا من كان قوياً. ألا تراهم إذا توجهوا إلى السودان قالوا في استكبار إنهم ذاهبون ليضغطوا على الحكومة؟ أتراهم قائلين ذلك لو كانوا ذاهبين إلى الصين؟

ثامناً: مهما يكن من أمر فلا بد من إسكان هذه الفتنة بوفاق وسلام؛ فالله - تعالى - يأمرنا إذا تقاتل فئتان منا أن نصلح بينهما، ويأمرنا باللجوء إلى الصلح حتى بعد قتال الفئة التي تصر على البغي. إن الوفاق هو الذي يهدئ الخواطر ويعين على اجتثاث الحقد من القلوب. وأما بغير صلح ووثام فتبقى البغضاء دفينه في النفوس، ويوشك أن يستعر أوارها لأدنى شرارة تقترب منها.

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

والله الموفق والهادي إلى سواء الصراط.

\* \* \*

(٢٠)

## الإسلام الهيلولاني

(البيان ٢٠٦ - شوال ١٤٢٥ هـ - نوفمبر - ديسمبر ٢٠٠٤ م)

الإسلام الهيلولاني<sup>(١)</sup> ليس إسلاماً لله تعالى، وإنما هو إسلام لأهواء كل من يدعي الانتساب إليه. إنه إسلام لا صورة له ولا محتوى، ولا يمكن أن يُعرّف أو يوصف؛ لأنه دائم التغير والتشكل بأشكال تلك الأهواء التي لا تستقر على حال.

وهو قابل لهذا التشكل المستمر؛ لأن القرآن في نظر الهيلولانيين وإن كان نصاً مقدساً إلا أن فهمه هو دائماً فهمٌ بشري، والفهم البشري يتغير، بل يجب أن يتغير بحسب ظروف القارئ للقرآن زماناً ومكاناً وثقافة ومزاجاً. وإذا كانت الفهوم كلها بشرية فكلها متساوية في كونها فهماً للقرآن الكريم. كيف بغير هذا يكون الإسلام صالحاً لكل زمان ومكان؟

ما الإسلام إذن؟ من حق كل منتسب إلى الإسلام أن يجيب عن هذا السؤال بالطريقة التي يريدها، وليس من حق مخالفه أن يعترض عليه أو يصمه بالكفر أو الابتداع أو حتى الخطأ؛ لأن الحقيقة ليست ملكاً لأحد، وإنما هي أمر نسبي تابع لرؤى الناس وظروفهم. لا فرق إذن بين شيعة وسنة، ولا بين سني وأشعري ومعتزلي وخارجي، ولا بين معترف بالسنة ومنكر لها، ولا بين سلفي وصوفي حتى لو كان الصوفي من النوع الذي يعتقد الولاية في من قال:

وما الكلب والخنزير إلا إلهنا وما الله إلا راهب في كنيسة

(١) الهيلولاني نسبة إلى هيلول - بفتح الهاء - وهي في فلسفة ارسططاليس مادة ليس لها شكل ولا صورة ثابتة وإنما هي قابلة لأن تأخذ صوراً وأشكالاً مختلفة.

كل هؤلاء متساوون، ولكل منهم من الحقوق ما لغيره في الوطن المسلم الذي يعيشون فيه.

فالإسلام اشتراكي إذا كان هوئى المنتسب اشتراكياً، وأبو ذر هو الاشتراكي الأول، وخديجة أم الاشتراكية [هذه أسماء كتب ظهرت في الخمسينيات] وهو رأسمالي إذا كان هواه مع الرأسمالية؛ لأن الله أحل البيع، أما الربا الذي حرمه فليس ربا البنوك الذي هو من ضرورات الاقتصاد الحديث، وإنما هو ربا العرب الجاهليين الذي كان يؤخذ أضعافاً مضاعفة استغلالاً لحجة المساكين.

والإسلام ديمقراطي؛ لأن الله - تعالى - يقول: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨] إذ ما ذا تكون الشورى غير الديمقراطية؟ ولكنه أيضاً دكتاتوري؛ لأنه يامر بطاعة الحاكم وعدم الخروج عليه.

والإسلام دين الجمال فهو لا يعترض على شيء من الفنون الجميلة رسماً ونحتاً ولا على ما يرسم أو ينحت مكسواً كان أم عارياً، متحرراً كان أم ساكناً، ما دام الغرض منه تذوق الجمال، وإدخال البهجة على النفوس.

والإسلام دين المتع البريئة؛ فلا اعتراض فيه على غناء أو موسيقى، ولا على رقص بين رجال ونساء؛ كيف يحرم الغناء والموسيقى من خلق الطيور المغردة ذات الأصوات الشجية؟

والإسلام دين السلام فلا مكان فيه لحرب ولا قتال؛ لأن الله - تعالى - يقول: ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [النساء: ٧٧] وأما الجهاد فإن المقصود منه جهاد النفس، وجهاد الكلمة والبيان؛ لأن الدعوة إلى الله لا تكون إلا بالحكمة والموعظة الحسنة. كيف يكون في الإسلام قتال وهو الدين الوحيد الذي يعترف بالآخر ولا سيما إذا كان متميماً إلى دين إبراهيمي؟ فالدين عند الله الإسلام، وكل الأنبياء مسلمون، وكل ما جاؤوا به من دين فهو إسلام؛ فكل من

انتسب إلى دين من تلك الأديان فهو مسلم لا فرق بينه وبيننا نحن المنتسبين إلى الدين المحمدي . فإذا كنا نعتقد أنه لا معبود بحق إلا الله ؛ فإن نصارى اليوم يعتقدون أنه لا نجاة إلا بعبادة المسيح ابن الله ، واليهود يعتقدون أنه لا نجاة إلا لمن كان من الشعب الذي اختاره الله . لندع الخلق إذن لخالقها هو الذي يحكم بينها .

والإسلام دين الحرية ؛ إذ لا إكراه في الدين ؛ فمن شاء أن يدخل فيه دخل ، ومن شاء أن يخرج منه خرج ، ولا تثريب على داخل فيه أو خارج منه ، فلا كلام في عصرنا عن ردة ومرتد . إن عصرنا هو عصر حرية التعبير ؛ فدعوا كل إنسان يقول ما شاء كيف شاء ، ويدعو إليه ويدافع عنه . دعوا الأفكار تتصارع ولا تحكموا على واحد منها بالحرمان من الدخول في حلبة المصارعة .

وإذا أراد المسلم أن يهاجر إلى بلد غير إسلامي ويعيش بين ظهرائي أهله ، فله أن يفعل ذلك ؛ لأن الأرض كلها لله ، والإسلام دين الله . ولكن عليه إذا اختار تلك الهجرة أن يعطي ولاءه الكامل لحكومة البلد الذي اختار الهجرة إليه ، ولدستورها ولا سيما إذا كان دستوراً ديمقراطياً . فعلى من يعيش في الولايات المتحدة مثلاً أن يقرأ الدستور الأمريكي في أذن مولوده كما ينادي بالأذان في الأذن الأخرى<sup>(١)</sup> . وعليه أن يحتفل بما يحتفلون به من أعياد عامة كعيد الشكر ، وأن يذبح البط كما يذبحون . ثم عليه أن يهنئهم بما يختصون به من أعياد دينية نصرانية كانت أم يهودية .

إعفاء اللحية من العادات التي لا علاقة لها بالعبادات ؛ فإذا كان الناس يرون في الماضي أن اللحية زينة للرجال ، وأنها تميز بينهم وبين النساء ، فإن ثقافة اليوم تريد أن تقرب بين الرجال والنساء ، وأن تمحو الفوارق بينهم ؛ فلا بأس على المسلم لذلك أن يحلق لحيته وشاربه ، وإن قيل إنه بذلك يشابه امرأته .

(١) هذا والله ما نصح به أحدهم المصلين في خطبة الجمعة في مسجد من مساجد أمريكا .

نظم الحكم وأمور السياسة والاقتصاد هي من أمر الدنيا الذي قال الرسول ﷺ عنه: «أنتم أعلم بأمر دنياكم» فلا بأس على المسلمين اليوم ان يتخذوا من أنظمة الحكم ما يرونه مناسباً لعصرهم ومحققاً لمطالبهم. وما دام الاتجاه الآن إلى مساواة النساء بالرجال في كل شيء فيجب أن نغير أحكام الميراث فلا يكون فيها فرق بين ذكور وإناث. ويجب أن يكون من حق المرأة أن تزاحم لتحل مكانها في الصفوف الأمامية من المسجد، وأن تخطب المصلين وتؤمهم في صلاة الجمعة كما يؤمهم الرجال. كما يجب أن تنال حقها في الاختلاط بالرجال ومزاحمتهم في أماكن العمل وفصول الدراسة وقاعاتها، وأن ترتدي من الملابس ما شاءت وكيف شاءت ما دام اللبس مما يعتبر في عصرها محتشماً؛ لأن الحشمة مسألة نسبية تختلف باختلاف الثقافات والعادات والتقاليد.

لماذا يُضطهد أناس خلق الله فيهم ميلاً طبيعياً إلى جنسهم رجالاً كانوا أم نساء؟ يجب أن نعطيهم حقوقهم في بلادنا الإسلامية كما تفعل الدول الراقية. أما قصة قوم لوط وعقاب الله لهم بجعل عالي أرضهم سافلها؛ فنحن مع أوليري - أحد مذيي محطة فوكس الأمريكية - في أنها قصة رمزية لا حقيقة تاريخية، وإلا فلماذا لم يقلب الله مدينة سان فرانسيسكو رأساً على عقب؟ كما قال هذا المذيع.

وإذا كان من حق هؤلاء أن يقضوا شهوتهم بالطريقة التي تفرضها عليهم (جيناتهم)؛ فكذلك ينبغي أن يعامل بقية الرجال والنساء فيعطوا من الحرية ما أعطي هؤلاء متزوجين كانوا أم عزاباً ما داموا راشدين وما داموا متراضين. هكذا تفعل الدول الراقية، وهكذا ينبغي أن يفعل المسلمون إذا أرادوا أن يعيشوا عصرهم. أما ما كان يقال من اختلاط الأنساب؛ فقد وفرت لنا حبوب منع الحمل علاجاً شافياً له.

وإذا أخذنا بهذا فإنه يغنيننا عن مسألة تعدد الزوجات ومشكلاتها . إنه من الواضح لنا أن القرآن لا يقر هذا التعدد ؛ لأنه بناء على شرط ذكر لنا أن توفره مستحيل ، فقال - تعالى - في آية : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ [النساء : ٣] ، وقال في آية أخرى : ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ .

[النساء : ١٢٩] .

هذا الدين الهيولاني المطواع هو الإسلام الذي تريده أمريكا وترضى عنه ، وما عداه وخالفه فإنما هو إسلام المتشدد من الوهابيين وأمثال الوهابيين الذين ما يزالون يعتقدون أن القرآن كله كلام الله ، وأنه يجب الالتزام بكل ما صح عن رسول الله ﷺ ، كما يجب الحكم بما أنزل الله .

\* \* \*



(٢١)

## قضية العلمانية والدين في البلاد الغربية

(البيان ٢٠٨ - ذوالحجة ١٤٢٥ هـ - يناير-فبراير ٢٠٠٥م)

إذا استمعت إلى ما يقوله بعض العلمانيين في بلادنا خيل إليك أن العلاقة بين الدين والدولة أو بين الدين والسياسة لم تعد قضية في البلاد الغربية ، وأن القوم هناك قد اتفقوا جميعاً المؤمنون منهم بالأديان وغير المؤمنين على أن الدولة يجب أن تكون علمانية وأن الدين لا دخل له بالشؤون العامة ، بل يجب أن يكون محصوراً في الحياة الخاصة . لكنك إذا تتبعته ما يقوله الغربيون أنفسهم ، ولا سيما في الولايات المتحدة تبين لك أن الأمر على غير ما صور لك أولئك العلمانيون في بلدك ، وتبين لك أن هذه القضية ما زالت تثير عند أولئك القوم معارك حامية الوطيس ، وما يزال كثير من الناس فيها يتجادلون ، وعنهما يكتبون ويخطبون ، وبسببها يتحزبون ، وعلى أساس منها يصوتون . بل إذا ترجمت لك معاركهم الكلامية في هذه المسألة ، وأخفي عنك المكان الذي دارت فيه فلربما تخيلت أنها تدور في بلد إسلامي . وإليك أمثلة على ذلك :

التقيت منذ سنين في مؤتمر عالمي برجل أمريكي نصراني عرف أنني مستمسك بديني ، فقال لي ناصحاً : لا تُخدعوا كما خُدعنا بالعلمانية ، كنا نظنها نظاماً محايداً بين الأديان ؛ فإذا بها دين مُعادٍ للأديان . استغربت كما لا بد أن يكون بعض القراء قد استغربوا في أن يأتي مثل هذا الكلام من رجل غربي . لكن هذا الشعور بخطر العلمانية على النصرانية بدأ الآن يزداد ، حتى إن أستاذ فلسفة كاثولوكي نشر كتاباً في عام ١٩٩٦م نصح فيه إخوانه النصاري قائلًا : من أهم مسائل هذا الكتاب أننا بحاجة إلى أن نعيد النظر في تصنيفاتنا الحالية وصفوفنا الحالية . إننا بحاجة إلى أن ندرك أولاً : أننا في حالة حرب ، وثانياً : أن الأطراف قد تغيرت تغيراً جذرياً . كثيرون ممن كانوا أعداءنا (المسلمون مثلاً) هم الآن

أصدقاءنا، وبعض من كانوا أصدقاءنا الإنسيون (humanists) مثلاً هم الآن أعداؤنا<sup>(١)</sup>.

لكن الحملة النصرانية ضد العلمانية ازدادت ضراوة إبان الانتخابات الأمريكية التي صورَّ المحافظون فيها الحزب الديمقراطي بأنه حزب العلمانية والليبرالية، والحزب الجمهوري بأنه الحزب المناصر للدين والقيم الخلقية.

فهذا أحدهم يكتب مقالاً بعنوان: الدين في مواجهة العلمانية<sup>(٢)</sup> يبدوه بقوله: لقد أصبح الدين واحداً من أعظم العوامل التي تحدد لك كيف تصوّت. إن الذين يكثرون من الصلاة يميلون إلى أن يصوتوا للحزب الجمهوري، والذين لا يفعلون هذا يميلون للتصويت للحزب الديمقراطي. لقد أظهر آخر استطلاع أن ٦٣٪ من الذين يشهدون مناسبات دينية أكثر من مرتين في الأسبوع يقولون: إنهم سيصوتون للجمهوريين، بينما يقول ٦٢٪ من الذين لا يشهدون مثل هذه المناسبات أو لا يشهدونها إلا نادراً: إنهم سيصوتون للديمقراطيين. لقد صار غير المتدينين هؤلاء قوة كبيرة في داخل الحزب الديمقراطي؛ يخشى أن يحولوه إلى حزب علماني.

ثم يشكو من كون الإعلام يركز على سيطرة المحافظين الجدد والنصارى المتعصبين من أمثال (فولويل). لكنه -أي الإعلام- نادراً ما يقول شيئاً عن سيطرة غير المتدينين على الحزب الديمقراطي. وينقل عن وصفهما بـ (عالمَي اجتماع) واهتمامهما بهذه القضية قولهما: إنه منذ عام ١٩٩٢م درج من سبعين إلى ثمانين بالمئة من العلمانيين الليبراليين على التصويت للمرشح الديمقراطي، بينما درج ما يقارب ثلثي المتدينين المحافظين على التصويت للمرشح الجمهوري. وينقل عن

(1) Peter Kreeft, Ecumenical Jihad: Ecumenism and the Culture War, Ignatius Press, San Francisco, 1994, p. 9.

(2) Face to Face: Religion vs. Secularism in Politics By Paul Strand, Washington Sr. Correspondent, CNB.com.

امرأة محافظة قولها عن الطريقة التي يصوت بها الناخبون: «إنها في الحقيقة فاصل على خط ديني بين من يعتقدون في حلول بشرية لمشكلاتنا وبين من يعتقدون في حلول مبنية على الإيمان». وهو يفسر موقف الإعلاميين ذاك بقوله: «ربما لأن الصحفيين الذين ينتجون معظم الأخبار في أمريكا هم من المناصرين مناصرة كاملة لأعداء المؤمنين». وينقل عن بعض الإحصاءات أن ما يقرب من ثلث هؤلاء الإعلاميين يعتقدون أن المسيحيين المنصرين خطر على الديمقراطية، وأن نصفهم يرى أن هؤلاء لهم قوة سياسية زائدة عن الحد. إن ما يقرب من نصف هؤلاء الإعلاميين يصرحون بأنهم لا دين لهم، وما يقرب من ثمانين بالمائة منهم لا يكادون يذهبون إلى الكنيسة.

من أبرز ما ظهر بهذا الصدد في الأشهر الأخيرة من انتخابات الرئاسة كتاب لمؤلف مسيحي مشهور عنوانه: الاضطهاد، كيف أن الليبراليين يشنون حرباً على المسيحية<sup>(١)</sup>. ظل هذا الكتاب لمدة خمسة أسابيع على رأس قائمة جريدة (النيويورك تايمز) لأكثر الكتب شراء. كان مما قاله هذا المؤلف في مناسبة دينية دعي لها: نحن في أتون حرب ثقافية - يعنون بالثقافة هنا المعتقدات والقيم في هذا البلد.. أعتقد أن المسيحيين هم الهدف الأساس للعلمانيين الإنسيين (secular humanists) الناشطين في حرب الثقافة هذه. إن نظرتنا المسيحية العالمية كلها محاصرة. لقد صارت القيم العلمانية هي المسيطرة في بلدنا، وهذا أمر يجب أن يحظى باهتمامنا.

وذكر أن من وسائل العلمانيين في محاربة المسيحية إبعادها من المجال العام، وأنهم يعتمدون في هذا على تفسير غير صحيح للمادة الدستورية المتعلقة بما عرف بفصل الدين عن الدولة. إنهم يفسرونها بالفصل الكامل بين المعتقدات الدينية

(1) David Limbaugh, Persecution: How Liberals are Waging War Against Christianity, Parrenial, 2004.

والحياة العامة، لكنه - وهو رجل قانون - يقول: إن هذا لم يكن مقصود الآباء المؤسسين، هكذا يسمون واضعي دستورهم؛ لقد كان مقصودهم في نظره هو حماية الحرية الدينية بمنع الكونغرس والحكومة الفدرالية من إنشاء كنيسة قومية.

إن في الولايات المتحدة ظاهرة يسمونها بالحرب الثقافية (حرب الاعتقادات والقيم) ما تزال تزداد مع مرور الأيام استعاراً. لقد كُتبت فيها وفي أسبابها ومخاطرها وطرق علاجها كتب وبحوث كثيرة، وما يزال المحافظون والليبراليون يتهم بعضهم بعضاً بأنهم السبب في زيادة حدة هذه الحرب. ينقل صاحب هذا المقال عن بعضهم قوله: إن الديمقراطيين هم السبب في هذا؛ لأنهم هم الذين جروا الحزب الديمقراطي إلى اليسار. إن كثيراً من العلمانيين والليبراليين ومن يمكن تسميتهم بأعداء المتدينين هم الآن ديمقراطيون لدرجة أن بعضهم صار يسمي الحزب الديمقراطي بالحزب الذي لا مكان فيه لله.

ومع أن أوروبا هي الآن أقل بلاد الدنيا تديناً إلا أنه مما أثار حنق الكثيرين من المتدينين فيها، ولا سيما رجال الكنيسة الكاثولوكية أن الدستور الجديد للاتحاد الأوروبي جاء علمانياً خالصاً لا ذكر فيه للنصرانية، حتى باعتبارها من المكونات التاريخية للثقافة الغربية.

في أكتوبر من عام ٢٠٠٤م قال الكاردينال راتزنجر - وهو كما يقال أحد المرشحين لمنصب البابوية - في إحدى المناظرات مبدئياً قلقه من تزايد العلمانية بالاتحاد الأوروبي: إن العلمانية تقوم على مذهب وضعي يؤدي إلى اعتناق النسبية، وإنه إذا صارت النسبية مطلقة فإنها ستكون متناقضة مع نفسها، وتؤدي إلى تدمير العمل البشري. وقال: إن من الأسباب التي سُوِّغ بها إغفال ذكر النصرانية أن ذكرها كان سيؤدي إلى إثارة حفيظة المسلمين، لكن الحقيقة كما يقول: هي أن الذي يغضب الإسلام: هو الإساءة إلى الذات الإلهية، والخطيئة العقلانية اللتان تتجان الأصولية الدينية<sup>(١)</sup>. إن العلمانية كما يقول هذا

الكاردينال: عقيدة جزئية لا يمكن أن تستجيب لكل التحديات البشرية. العقل بالعكس - كما يقول - ليس عدواً للإيمان، لكن المشكلة تنشأ عندما يكون هنالك احتقار للخالق وللمقدسات. وقال عن الحرية: إنها تفهم اليوم فهماً فردياً مع الناس أنهم إنما خلقوا ليتعايشوا. إن هنالك حرية مشتركة تضمن الحرية للجميع، وتمنع جعل الحرية مطلقة<sup>(٢)</sup>.

لقد صارت العلمانية في نظر بعض المتدينين الغربيين أيديولوجية تحدُّ من الحرية. وفي هذا الصدد يقول رئيس رابطة أطباء كاتالونيا المسيحيين بإسبانيا لموقع Zenit.org النصراني: إنه إذا كنا قد تحدثنا في الماضي عن أيديولوجيات هدامة: كالفاشية، والماركسية؛ فإننا نشاهد في العلمانية اليوم تقليصاً لحرية التعبير، ولممارسة الدين. ضرب بعض الأطباء الكاثوليك أمثلة على ذلك بأنه يكاد يكون من المستحيل اليوم أن تحصل على لقب طبيب نساء (gynecologist) إذا لم تكن قد أجريت عملية إجهاض، وأنهم في فرنسا يمنعون من وضع لافتات تعلن عن مؤتمراتهم بحجة أن هذا مظهر ديني لافت للنظر<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

(١) عني أن الأصولية تأتي رد فعل لهذا التطرف العلماني.

(2) Rome, Oct. 27, 2004 (Zenit.org.)

(3) Madrid, Spain, 22 November, 2004 (Zenit.org)

(٢٢)

## الإسلام ففوبيا

(البيان ٢١٠- صفر ١٤٢٦ هـ - مارس- إبريل ٢٠٠٥م)

يتحدث الناس في الغرب عن مرض نفسي يسمونه الإسلام ففوبيا يحسبونه جديداً وهو قديم قدم الرسالات السماوية . يتمثل المرض في كراهية أو خوف من الإسلام لا مسوغ له .

يدفع هذا المرض المصابين به إلى اتخاذ مواقف عدائية من الدين الإسلامي وأهله تتمثل في مظاهر كثيرة يذكرون منها : الكلام غير اللائق عن النبي ﷺ والافتراء عليه ، الاستشهاد بآيات من القرآن أو نصوص من السنة وبترها عن سياقها ، تصوير ما يتهم به بعض المسلمين من أعمال إرهابية بأنه ليس عملاً معزولاً يقوم به أفراد وإنما هو واجب ديني يأمرهم به الإسلام ، الادعاء بأن الإسلام هو سبب تخلف المسلمين ؛ لأنه مضاد للعلوم الطبيعية وللتقنية ولكل ما هو من ضرورات الحياة المعاصرة ، اتهام الإسلام بأنه هو السبب في انتشار الحكم الدكتاتوري ولا سيما في البلاد العربية ، القول بأن الإسلام لا يحترم المرأة بل يدعو إلى معاملتها معاملة الرقيق .

وكان من نتائج هذه الدعايات أن كثيراً من المسلمين صاروا لا يعاملون معاملة المواطن العادي في البلاد الغربية ، حتى من كان منهم من مواطنيها ، وحتى الطلاب لم يعودوا يلقون من زملائهم الترحيب العادي الذي يكون بين الشباب .

## ما السبب في هذا؟

من أسبابه جهل بعض الناس بالإسلام ومن ثم تأثرهم بمثل تلك الدعايات . فالإسلام الذي يمتقونه أو يخافون منه ليس هو الدين الذي أنزل على محمد ﷺ ،

وإنما هو الدين الذي صورته لهم وسائل إعلامهم ، وحدثهم عنه سادتهم وزعمائهم .

ومنها أخطاء أو جرائم يرتكبها بعض المسلمين فتعزى إلى دينهم .

لكن السبب الأعظم هو كراهية بعض الناس للإسلام ؛ لأنهم يكرهون الحق . هذا هو الداء العضال الذي وجد في الناس منذ أن وجدت رسالات السماء الداعية إلى الحق المبين . ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴾ [٥٢] أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿ [الذاريات : ٥٢ - ٥٣] .

فأقولهم هي ثمرة مرض الطغيان هذا الذي في قلوبهم ؛ فهم لم يتواصوا به ولم يكونوا محتاجين إلى مثل هذا التواصي ، بل إن كلاً منهم أصيل في الشر أصالة من سبقه ؛ فأمرهم هو كما قال الله - تعالى - : ﴿ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [البقرة : ١١٨] .

هذا هو القانون الجامع لهم . لكن القرآن الكريم كما أعطانا هذا القانون أعطانا أيضاً أمثلة للأفراد والأمة التي انطبق عليها .

فهذا نوح يقول لقومه : ﴿ أَنْلِزْ مَكُومَهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ [هود : ٢٨] . وهؤلاء ثمود الذين هداهم الله ﴿ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ [فصلت : ١٧] . وهؤلاء أعداء محمد ﷺ من العرب الذين قال الله - تعالى - فيهم : ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾ [٦٩] أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿ [المؤمنون : ٦٩ - ٧٠] .

### كيف العمل مع أولئك وهؤلاء؟

نعالج كل فئة بحسب السبب الذي أدى إلى مرضها . فأما الجاهلون - ولعلمهم الأكثرية - فمن حقهم علينا أن نعينهم على الفهم الصحيح ، وأن نصبر عليهم ونستمع إلى حججهم واعتراضاتهم ، وأن نجادلهم بالتي هي أحسن .

وأما من كان سبب كراهيته أخطاء وقع فيها بعض المسلمين أو جرائم ارتكبوها؛ فمن حقهم وحق الإسلام علينا أن نعترف بتلك الأخطاء ونصرح بأنها أخطاء ونبرئ ديننا منها. هذا هو المنهج الذي يدعونا إليه ديننا. فعندما قتل بعض المسلمين بعض المشركين في الشهر الحرام، واستغل بعض المشركين هذا لتشويه سمعة المسلمين قال الله - تعالى -: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٧] فقرر الله - تعالى - في بداية هذه الآية أن ما فعله أولئك النفر المخلصون من المسلمين كان خطأ كبيراً. وعندما اتهم بعض المنتسبين إلى الإسلام رجلاً يهودياً بالسرقة أنزل الله - تعالى - في تبرئته اثنتي عشرة آية من سورة النساء تبدأ بقوله - تعالى -: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥] أي لا تكن مدافعاً عنهم. من هذه الآيات قوله - تعالى -: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١١٢].

هذا؛ لأن مهمتنا هي الدفاع عن الحق لا عن الخلق، ولأن العدل عندنا واجب على كل أحد في كل أحد في كل حال ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨] ﴿فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾.

[الأنعام: ١٥٢].

وأما من كان مصاباً بداء الكراهية للحق فلن يرضى إلا إذا كفرنا بهذا الحق بعد معرفتنا له وإيماننا به، ووافقناهم على باطلهم ديناً يهودياً أو نصرانياً محرفاً، أو علمانية تنكر رسالات السماء، أو غير ذلك من سبل أهل الأهواء. هؤلاء الكارهون للحق قد يبذلون كل ما في وسعهم من مال ووقت وعلم، بل وقد يبذلون أرواحهم في محاربته؛ فما العمل معهم؟ هل نستجيب لهم فنكفر كما كفروا؟ كلا؛ والله! بل لن يزيدنا خلافهم وكراهيتهم إلا استمسكاً بالحق ودعوة إليه قائلين لهم: موتوا بغضكم؛ موقنين بأن كل جهودهم ستبوء بالإخفاق: ﴿إِنَّ



الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴿[الأنفال: ٣٦] .

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨] ومع كراهيتنا لما يقولون عن دين الحق، ومع ما نلقاه منهم من عنت، إلا أننا نستبشر بهذه الحملة الظالمة على الإسلام، ونرى فيها دليلاً على أننا صرنا أمة حية، وأن دعوتنا بدأت تؤتي أُكلها. إن الأمة الميتة التي لا رسالة لها ولا نشاط لها لا يؤبه لها، ولا ينشغل الناس بها؛ لأنه لا تأثير لها عليهم. فهذا الانشغال بمحاربة الإسلام والخوف منه واعتباره العدو الأول بعد سقوط الشيوعية دليل على حيوية في هذه الأمة؛ فالحمد لله الذي جعل منا من يكون من أسباب حياتها ونشر رسالتها وإدخال الرعب في قلوب أعدائها.

ونستبشر بها أيضاً؛ لأننا نعلم أنها من الوسائل التي يسخرها الله - تعالى - لنصرة دينه وإعزازه. ففي أول موسم للحج بعد إعلان الدعوة المحمدية المباركة خشي أعداؤه بمكة من أن يؤثر في الحجيج، ففرقوا في كل سبل الحج يحذرون الناس منه ﷺ، لكن ذلك كان من أسباب انتشار ذكره؛ فما رجع حاج إلى قومه إلا وهو ينقل لهم خبر الفتى القرشي الذي قال إن الله - تعالى - بعثه رسولاً. وهذا ما يحدث في أيامنا هذه؛ فما أكثر الذين لم يكونوا يعرفون عن الإسلام شيئاً ولا يفكرون في معرفة شيء عنه حتى جاء هذا الهجوم الظالم عليه، فأثار حب استطلاعهم، فذهبوا يسألون عن الإسلام ويقرؤون عنه، فكان هذا من أسباب هداية الكثيرين منهم.

وإننا لنستبشر به؛ لأن الدعاوى الباطلة المثارة ضد ديننا تعطينا فرصة الرد عليها، وإبلاغ صوتنا إلى أقوام ما كانوا يستمعوا إلينا ولا يهتمهم أمرنا؛ وفي هؤلاء عقلاء يميزون بين الحق الأبلج والباطل اللجلج.

ونستبشر به؛ لأن الخوض فيه كان على حساب أعظم ما يعتز به الغرب من

قِيمَ: إذ أن الحرب على الإسلام كانت على حساب دعاوى الحرية، وعلى حساب التسامح الديني، وعلى حساب حكم القانون. لقد تبين للكثيرين حتى من الغربيين أنفسهم أن قيمهم هذه إنما كانت مبنية على شفير هار، فانهارت في أول مواجهة لها مع الدين الحق.

ونستبشر به؛ لأنه مما جعله الله وسائل لتنقية صفوف المسلمين، ونفي الخبث عنها. إن بعض من ينتسب إلى الإسلام ستردد وسيجامل وسينحرف، بل إن بعضهم سيرتد بعد إيمانه كافرًا. فماذا نفعل مع هؤلاء؟ هل نبكي وننوح ونستسلم للأحزان؟ كلا، بل نقول: يا عباد الله! فاثبتوا؛ فإن الله مستبدل لكم بهم من هو خير منهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [٥٤] إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ [المائدة: ٥٤ - ٥٦].

\* \* \*

(٢٣)

## المواطنة والهوية

(البيان ٢١١ - ربيع الأول ١٤٢٦ هـ - إبريل - مايو ٢٠٠٥ م)

المواطنة انتساب جغرافي، والهوية انتساب ثقافي. المواطنة انتساب إلى أرض معينة، والهوية انتساب إلى معتقدات وقيم ومعايير معينة. فما العلاقة بينهما؟ نذكر فيما يلي أمثلة للعلاقات بينهما، وللمشكلات التي تثيرها هذه العلاقات، فنقول:

- الهوية لازمة للمواطنة؛ لأن المواطنين لا بد لهم من نظام سياسي، وعلاقات اقتصادية واجتماعية، وقوانين تضبط هذه العلاقات. وكل هذا إنما يبنى على معتقدات وقيم ومعايير؛ أي على هوية معينة.

- ليس الوطن الذي ينتسب إليه المواطنون هو الذي يحدد لهم نوع الهوية التي إليها ينتسبون. فالوطن الواحد قد تتعاقب عليه نظم مختلفة بل ومتناقضة. فالروس كانوا مواطنين روساً، حين كانوا ينتمون إلى الاتحاد السوفييتي، وحين كان نظامهم الاقتصادي اشتراكياً، وكان نظام حكمهم دكتاتورياً، وهم الآن مواطنون روس بعد تفكك الاتحاد السوفييتي، وبعد حلول الرأسمالية محل الاشتراكية، والديمقراطية محل الدكتاتورية.

- فالهوية إذن هي النظارة التي يرى من خلالها المواطنون ما هو مناسب أو غير مناسب، صالح أو غير صالح لوطنهم. فإذا اختلفت النظارات اختلف تقويم الناظرين إلى ما ينظرون إليه، وإن اتفقوا على الحقائق الحسية.

- وإذا صح هذا فإن المواطنين مهما كان إخلاصهم لوطنهم وحرصهم على مصلحته لا يمكن أن ينظروا إلى تلك المصلحة باعتبارهم مواطنين فقط، بل لا بد

أن ينظروا إليها بحسب هوياتهم . لكن بعض الناس يتوهمون أنه بإمكان المواطنين في بلد ما أن يحلوا مشكلاتهم بمجرد انتمائهم الوطني . فيقولون مثلاً: لماذا لا نجلس باعتبارنا سودانيين فقط أو سوريين فقط ، أو يمينيين ، أو خليجيين ، أو مصريين ، وننسى انتماءاتنا الدينية والأيدولوجية لنحل مشكلة من مشكلاتنا الاقتصادية؟ نعم! هنالك مشكلات يمكن أن يحلها الناس حتى باعتبارهم بشراً، ودعك من أن يكونوا مواطني دولة من الدول ، ولكن ما كل المشكلات كذلك ، وإلا لما انتمى الناس أصلاً إلى ثقافة من الثقافات ، بل نظروا إلى كل مشكلة باعتبارهم بشراً لا غير .

خذ مثلاً مشكلة (مرض الإيدز): إن الناس سيتفقون باعتبارهم بشراً وبغض النظر عن انتماءاتهم الوطنية بأنه شيء ضار؛ لأنه خطر على حياتهم وحياة أولادهم ، وهم باعتبارهم بشراً حريصون على الحياة . هل يتفقون على طريقة معالجته؟ ليس بالضرورة؛ فقد يقول المتدينون - مسلمين كانوا أو يهوداً أو نصارى - إن العلاج الحاسم إنما يكون بالكف عن أية ممارسة جنسية قبل الزواج . وقد يذهب المسلم إلى القول: إن هذا يستدعي فصل الرجال عن النساء ، وإلزامهن بزي معين لا يكون مثيراً للرجال . ولكن أناساً من غير المتدينين قد يرون في مثل هذه الاقتراحات حداً من الحرية ، وهي في نظرهم أمر ضروري ضرورة العفة التي ينشدها المتدينون؛ ولذلك يرون الاكتفاء بالبحث عن علاج طبي لا سلوكي .

وخذ قضية أخرى يواجهها كل البشر: (كيف تكون العلاقة الجنسية بينهم؟) هل تكون إباحية يقضي كل فرد منهم حاجته مع من شاء كيف شاء؟ هل يتزوجون؟ وهل يكون الزواج بواحدة أم أكثر؟ وهل هنالك حد لهذا الأكثر؟ هذه قضايا لا يحلها الناس بمجرد انتمائهم الوطني؛ لأنه ليس في هذا الانتماء ما يهديهم إلى خيار من هذه الخيارات ، أو يفرضه عليهم .

لا بد للمواطنين إذن من هوية، من ثقافة تكون هي المنظار الذي ينظرون به إلى الواقع، والمعيار الذي يقترحون به الحلول لمشكلاتهم.

ولكن ماذا إذا كان المواطنون في البلد الواحد منقسمين إلى ثقافات، وهويات مختلفة؟ هنالك عدة احتمالات:

- أحسنها من حيث الاستقرار وعدم التنزع: هو أن تكون إحدى هوياتهم هذه هي الغالبة من حيث عدد المنتسبين إليها. قيّدتُ الحسن بالاستقرار السياسي، وعدم التنزع ولم أقل التطور العلمي، أو الاقتصادي، أو العسكري؛ لأن الهوية التي استقر أمرهم عليها قد لا تكون بطبيعتها مساعدة على ذلك.

- وإذا لم تكن هنالك هوية غالبة بهذا المعنى فقد يكون المنتمون إلى إحدى الهويات أقوى من غيرهم؛ فيفرضون على البلد هويتهم، وينظمون أمره على أساسها. هذا سيكون بالطبع على حساب بعض الحريات، لكن هذه الأيدلجية المفروضة بالقوة قد تكون مساعدة على تطور البلاد اقتصادياً وعلمياً وعسكرياً، كما كان الحال في الاتحاد السوفييتي، وكما هو الآن في الصين، وكوريا الشمالية.

- وإذا لم يحدث هذا ولا ذاك، وكانت الهويات والثقافات المتعددة متساوية في قوتها فأمام مواطنيها خيارات:

- فإما أن يحلُّوا نزاعهم بتقسيم وطنهم، كما حدث للهند حين خرجت منها باكستان، ثم خرجت بنجلادش من باكستان، وكما خرجت أرتيريا من أثيوبيا، وكما انقسمت شيكوسلوفاكيا، ويوشك أن تنقسم الآن أكرانيا.

- وإما أن يبحثوا عن صيغة يتعايشون بها رغم اختلافاتهم؛ فماذا يا ترى يمكن أن تكون هذه الصيغة؟

يرى بعضهم أن أحسن طريقة لتعايش مثل هذه الهويات المختلفة: هو أن

تختار نظاماً علمانياً محايداً بينها، وديمقراطياً يعطي كل واحد منها حق الوصول إلى السلطة، إذا ما اختارته الأغلبية.

لكن المشكلة أنه لا يوجد نظام للحكم محايد بين هويات مختلفة اختلافاً أساسياً، ويستحيل عقلاً أن يوجد. لا يمكن أن يكون النظام الاقتصادي في البلد الواحد رأسمالياً واشتراكياً، ولا يمكن أن يكون اقتصاد السوق رأسمالياً يبيع الربا، وإسلامياً يحرمه ويفرض الزكاة، لا يمكن أن يكون النظام السياسي إسلامياً يلتزم بشرع الله باعتبار أن الحكم التشريعي له سبحانه، وديمقراطياً يعطي هذا الحق للبشر يشرعون ما شاؤوا؛ فالعلمانية هي نفسها إذن هوية من الهويات، فأنى تكون محايدة بينها؟

ومن المتفق عليه بين منظري الديمقراطية من الغربيين - ودعك من عوام السياسيين من أمثال بوش - أن الديمقراطية لا تصلح ولا تكون سبباً للاستقرار إلا في إطار متفق عليه بين معظم المواطنين، ثم تكون خلافاتهم الثقافية خلافات فرعية داخل هذا الإطار العام الجامع. وأما إذا كانت الخلافات أساسية، وحول الإطار نفسه فإن الديمقراطية لن تحل إشكالاً، ولن تحقق استقراراً؛ لأنه لا أحد من المتنازعين سيقبل حلاً لمجرد أن الأغلبية التي يختلف معها قالت به.

ما الحل إذن؟ الحل في مثل هذه الحال: هو أن يجتمع المختلفون، ويبدووا بتقرير المبدأ الذي هم متفقون عليه: أنه من مصلحتهم جميعاً أن يبقوا في وطن واحد، ثم ينظروا إلى الكيفية التي يحققون بها هذا الهدف، من غير تقييد سابق بديمقراطية، ولا علمانية، ولا غير ذلك من النظم والأيدولوجيات الشائعة، بل يقولون: هذه أوضاعنا، وهذه خلافاتنا؛ فلنبحث عن حل أصيل لها ومتناسب معها، وهو حل يستلزم - ولا بد - قدرًا من التنازلات والمساومات، وقد يكون شيئاً جديداً يستفيد من الدين ومن التجربة الديمقراطية، أو العلمانية، أو غيرها، ولا يأخذ أياً منها بكامله. هذا ما حاول فعله واضعو الدستور الأمريكي؛ فبالرغم

من أن الولايات المتحدة تعد اليوم مثلاً للديمقراطية؛ إلا أن الذين وضعوا دستورها لم يكونوا ملتزمين بتجربة ديمقراطية معينة، ولا بمبادئ ديمقراطية معينة، بل كان بعضهم يخشى مما أسموه بدكتاتورية الأغلبية التي قد تؤدي إليها الديمقراطية. ولذلك جاء دستورهم شيئاً جديداً لا يمكن أن يوصف بالديمقراطي إذا ما قيس بالمبادئ الديمقراطية الصارمة. من ذلك أنه من الممكن - بل حدث - أن يكون الرئيس الفائز في الانتخابات أقل أصواتاً من منافسه. ومنها فكرة الكليات الانتخابية التي لا تقيد أعضاءها برأي ولايتهم، بل تجيز لكل واحد منهم أن يصوت لمن يراه صالحاً من المرشحين للرئاسة بغض النظر عن الأصوات التي نالها في الولاية.

لكن حتى هذا لم يحل الإشكال حلاً كاملاً؛ فما زال الشعب الأمريكي منقسماً في قضية العلاقة بين الدين والدولة، وما زالت الكتب فيها تكتب، والبحوث تُنشر، والقضايا ترفع، وهذا يعني أن التعددية ليست شيئاً حسناً في ذاته وبإطلاق. التعددية تكون حسنة إذا ما كانت إيجابية، وهي لا تكون كذلك إلا إذا كانت ضمن إطار ثقافي جامع؛ أي ضمن هوية جامعة. فتعددية الهويات المختلفة المتناقضة: هي مشكلة يجب أن تعالج وليست واقعاً يحافظ عليه، أو يتباهى به، كما يفعل كثير من الناس الآن في السودان وغيره؛ وذلك لأنه لا يسهل مع مثل هذه التعددية تحقيق استقرار سياسي، ولا يسهل معها من ثم تطور اقتصادي، أو علمي أو تقني. هذا هو المتوقع عقلاً، وهو الذي تدل عليه تجارب الأمم قديمها وحديثها.

قد يقال: لكن هذه هي الولايات المتحدة تتباهى بأنها أمة واحدة رغم أنها تكونت من مواطنين من أجناس متعددة، وديانات متباينة، ولغات مختلفة، وثقافات متناقضة. نعم! لكنها لم تصر أمة واحدة إلا حين صهرت هذه المكونات كلها في بوتقة، وأخرجت منها شيئاً واحداً متجانساً. يمكن لذلك أن نقول: إن

التعدييات نوعان: تعددية صحن السلطة الذي يحتفظ كل مكون من مكوناته بلونه وطعمه وملمسه: فهذا طماطم، وهذا جرجير، وهذا عجور، وهكذا. وتعددية القدر الذي توضع فيه كل المكونات: من لحم، وخضار، وملح، وبهارات لتطبخ إداماً واحداً ذا طعم واحد، وربما لون واحد. هذا الأخير هو الذي يقال: إن الولايات المتحدة فعلته، إنها كما يحلو لهم أن يقولوا بوتقة melt-ing pot جعلت من مكوناتها أمة أمريكية واحدة. يقول كاتب أمريكي: لقد كانت الأمركة عملية انسجام قسري كانت الولايات المتحدة فيها بمثابة البوتقة لا النسيج ذي الألوان والصور المختلفة. لم يكن ينظر إلى المجتمع الأمريكي على أنه قطعة من روسيا؛ قطعة من إيطاليا، وقطعة من بولندا مزج بعضها ببعض، كلا! بل إن القوميات المختلفة جعلت أمريكية كما ينقى المعدن الخام ليصير ذهباً خالصاً. الأمركة نقتهم وأزالت خبثهم. إن أصحاب موكب حركة البوتقة لم يكونوا يحتفلون بالتسامح، ولكن بالخضوع لمفهوم ضيق للقومية الأمريكية، بتصوير الأجانب بأناس في أزياء غريبة، ينغمسون في قدر كبير، ويخرجون منه نقيين بهندام جميل، ولهجة أمريكية خالصة، ومنظر أمريكي؛ أي أمريكيان إنجليز<sup>(١)</sup>.

كيف يقال: إن أمريكا تؤمن بالتعددية، وهي زعيمة الغرب الذي ما زال يسعى لقتل الثقافات الأخرى، ولأن تكون ثقافته هي المهيمنة على العالم؟ اقرؤوا في هذا - إن شئتم - كتاب (إدوارد سعيد) الاستعمار الثقافي (Cultural Imperialism)، بل إنهم ليعدون ثقافتهم جزءاً من قوتهم التي يسمونها بالقوة الناعمة أو اللينة soft power في تقرير جديد للجنة استشارية من لجان الكونغرس فيه تقويم لسياسة الحكومة الأمريكية، ونقد لها جاء قولهم:

كنا نتحدث حتى الآن على افتراض أن الهوية شأن داخلي في وطن من الأوطان، لكن الواقع ليس كذلك. فالعلاقة بين الوطن والهوية لا تكاد تكون علاقة مطابقة. وهذا يسبب مشكلات كثيرة منها:

(1) The Atlantic Monthly; May 1995; Volume 275, No. 5; pages 57-67.



- أنه كما أن تعدد الهويات في الوطن الواحد قد يؤدي إلى تمزيقه ؛ فإن اتحاد الهويات في أوطان متعددة قد يؤدي إلى توسيع للحدود الوطنية ، بضمّ بعض الأقطار إلى بعض ، أو بالتعاون الوثيق بينها الذي يجعلها كالوطن الواحد ، كما هو الحال الآن في الاتحاد الأوروبي .

- لكن هذا التوحيد أو التمزيق لا يحدث في الغالب إلا بطريقة عنيفة . وفي هذا يقول المؤرخ الإنجليزي (لويس نامير) كلمته التي كنا قد نقلناها في مقال سابق : «إن الدول لا تتوحد أو تُحطم ، والحدود لا تُمحى أو يعاد رسمها بالحجج وصوت الأغلبية . إن الأمم تحرر وتتوحد أو تمزق بالحديد والدم ، لا بالتطبيق الكريم لمبدأ الحرية» .

- بما أن مصالح المواطنين في أرض معينة لا تكاد تكون محصورة في حدود أرضهم ، ولا سيما في عصرنا هذا الذي تشابكت فيه المصالح بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ العالم ؛ فإن مفهوم الدولة الوطنية بدأ يتضاءل ، وتحل محله تحالفات أو اتحادات بين دول متعددة . ولكن هذه التحالفات لا تنجح إلا إذا كانت مبنية على هويات مشتركة . خير مثال على ذلك (الاتحاد الأوروبي) الذي لم يجد مشكلة في ضم كل قطر ذي هوية أوروبية نوعاً ما ، لكنه يتلكأ في قبول (تركيا) ذات الهوية المختلفة ، بالرغم من أنها دولة علمانية ، وبالرغم من أنها غيرت في كثير من قوانينها لتوافق البلاد الأوروبية .

- بما أن التطور الهائل في وسائل الاتصال جعل من كرتنا الأرضية ما يشبه الوطن الواحد فقد ازداد حجم المشكلات التي تهم الناس باعتبارهم بشراً ، وبغض النظر عن أوطانهم وهوياتهم . من أوضح الأمثلة على ذلك مشكلة (الخروق) التي بدأت تحدث في طبقة الأوزون ، والتي تسببت في ارتفاع درجة الحرارة في الكرة الأرضية . وقد كان من نتائج كثرة ازدياد المشكلات المشتركة بين الناس أن كثرت المنظمات العالمية كثرة ليس لها مثيل في تاريخ البشرية .

- لكن بعض الدول القوية صارت تحاول إخضاع البشرية كلها إلى قيم نابغة من هويتها، أو خادمة لمصالحها؛ بحجة أنها قضايا إنسانية عامة لا ثقافية خاصة. ومن أوضح الأمثلة على ذلك ما سمي بـ (الإعلان العام لحقوق الإنسان) الذي يقول كثير من نقاده حتى من الغربيين: إن كثيراً من بنوده لا ينطبق عليه وصف الحق الإنساني، والذي يرى بعضهم أن كثيراً منه تعبير عن ثقافة معينة هي الثقافة الغربية. بل إن بعض الجهات المؤثرة صارت تستغل الأمم المتحدة نفسها لإلزام الأمم كلها بقرارات نابغة من قيمها، ومنها قضية المرأة.

نخلص من هذا كله إلى أنه على المسلمين في بلد: كالسودان أن لا يُخدعوا بما يقول لهم مثلاً الزعيم (قرنق) من أن علينا جميعاً أن نجتمع باعتبارنا سودانيين فحسب، وأن نجعل الدين أمراً شخصياً؛ لأن الأديان تفرقنا والوطن يجمعنا. إن قرنق لا يتحدث هنا باعتباره سودانياً فحسب، بل ولا باعتباره جنوبياً فحسب، وإنما يتحدث باسم الحضارة الغربية وقيمها.

إن تخلي المسلمين عن دينهم في حياتهم العامة ليس استمساكاً بوطنية لا هوية فيها كما يدعي (قرنق)، وإنما هو إحلال للهوية الغربية محل الهوية الإسلامية.

\* \* \*

(٢٤)

## القسطية لا الديمقراطية

(البيان ٢١٢- ربيع الثاني ١٤٢٦ هـ - مايو- يونيو ٢٠٠٥ م)

الديمقراطية هي الفتنة الجديدة التي ابتلي بها المسلمون، بل الناس عامة. وزاد من الافتتان بها أن الولايات المتحدة، ولا سيما في عهد رئيسها الحالي، جعلت نشرها من أكبر أهدافها التي تنفق في سبيلها الأموال الطائلة وتقيم الحروب الطاحنة، وجعلت الالتزام بها هو معيار تقدم الأمة واستحقاقها لصداقة الولايات المتحدة، أو هكذا يزعمون.

ومما جعل مناقشتها مع مؤيديها والدعاة إليها والراضين بها من المسلمين أمراً صعباً أنه لم يعد لها معنى واحداً عند الداعين إليها. بل صارت تشير إلى معان عدة يختار كل واحد منهم ما شاء منها، ولا يدري أن صاحبه يشير بالكلمة إلى معنى غير المعنى الذي يقصده هو.

هذا الاختلاف في مفهوم الديمقراطية أمر يشكو منه كبار منظرّيها وفلاسفتها المعاصرين؛ فهذا أحدهم يقول ما ترجمته:

هنالك ميل إلى وصف النظام بالديمقراطي فقط لأننا نوافق عليه، ولكننا عندما نفعل ذلك إنما نتحدث عن آرائنا لا عن النظام.

ويقول: المعتقد عموماً أن «الديمقراطية» عبارة صارت تستعمل استعمالاً واسعاً جعلها كلمة غامضة، بل كلمة لا معنى لها. إن كل شكل من أشكال التنظيمات في المجال السياسي (بل وغير السياسي) أصبح يوصف بالديمقراطية أو الديمقراطي<sup>(١)</sup>.

(1) Barry Holden, Understanding Liberal Democracy, Philip Allan, London, 1988, p. 2.

سنحاول فيما يلي مناقشة صلة الديمقراطية بالإسلام بحسب المعاني المختلفة التي يقصدها أنصارها من المسلمين ؛ لأن الإنسان إنما يُسأل عن المعنى الذي قصده من عبارته ، حتى لو كان استعماله للعبارة خطأ .

وقد أدرنا الحوار في مسائل الديمقراطية هذه بين مسلمين يدعو أحدهما إلى نظام سياسي إسلامي خالص يسميه القسْطية ، وآخر من دعاة الديمقراطية .  
\* يبدأ القسْطي الحوار بقوله :

دعونا نتفق أولاً على ما نعنيه بالقسْطية ، وما نعنيه بالديمقراطية . أما القسطية فهي كما يدل عليها لفظها الحكم بالقسْط . والحكم بالقسْط هو الحكم بما أنزل الله تعالى . وما أنزل الله يشمل الأحكام الجزئية التي تدل عليها الأدلة التفصيلية من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، ويشمل المبادئ الأساسية التي يسميها الفقهاء بكليات الشريعة التي تقرر فيما تقرر أن كل ما حقق القسْط فهو من شرع الله ، ففتتح الباب واسعاً للاستفادة من كل تجربة بشرية نافعة أياً كان مصدرها .

وإذا كانت القسطية هي الحكم بما أنزل الله ؛ فإن الديمقراطية هي الحكم بما يراه الشعب . هذا هو معناها الذي يدل عليه لفظها ، وهو المعنى المتفق عليه بين منظرّيها . حكم الشعب معناه أن الشعب صاحب السيادة العليا في المسائل التشريعية ، وأنه لا سلطة فوق سلطته التشريعية ، وعليه فإن كل ما حكم به فيجب أن يكون هو القانون الذي يخضع له كل مواطن من مواطني القطر الذي اختار الديمقراطية نظاماً سياسياً له .

لا يمكن لإنسان يدعي الإسلام ويعرف معناه أن يؤمن بالديمقراطية بهذا المعنى ؛ لأنه إيمان يتناقض تناقضاً بيناً مع أصل من أصول الإيمان التي جاء بها دينه ، والتي تؤكدتها كثير من آيات الكتاب وأحاديث الرسول ﷺ . من ذلك قوله - تعالى - :

﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا

أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ [المائدة: ٤٩ - ٥٠].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ [النساء: ٦٠ - ٦١].

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥]، ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠].

● ما ذا تعني أنت بالإسلام، وما ذا تعني بالديمقراطية؟

- الديمقراطي: أما الإسلام فأظننا متفقون على معناه، وأما الديمقراطية؛ فأنا لا أعني بها ما ذكرت. هل تتوقع من إنسان مسلم أن يقول إن من حق الناس أن يشرعوا تشريعات لم ياذن بها الله؟

■ ماذا تعني بها إذن؟

- لقد عانت الشعوب العربية كثيراً من الحكم الفردي الدكتاتوري. فالذي أريده هو أن يستبدل بهذا الحكم حكم ديمقراطي يكون من حق الشعب فيه أن يختار حكامه في انتخابات حرة نزيهة، وأن يحاسبهم، وأريده أن يكون حكماً يلتزم بما يسمى بحكم القانون فلا يفرق بين الناس في المعاملة، وأن يكون حكماً يستمتع الناس فيه بحقوقهم في الحرية، حرية التعبير، وحرية الحركة، وحرية تكوين الأحزاب والجماعات، وأن يكون حكماً يتميز بتداول السلطة، وأن يكون حكماً شفافاً لا تحاك الأمور فيه في الظلام بل تُعرض على الناس ليقولوا فيها رأيهم. فحكم الشعب في رأيي ليس المقصود به المقابلة بين ما يراه الشعب وما

يحكم به الخالق سبحانه ، وإنما المقصود به حكم الشعب في مقابلة حكم الفرد .

- الاستعمال الصحيح للكلمات هو أن يقصد بها المعنى المتفق عليه بين مستعمليها ، ولا سيما المختصين منهم بالأمر . فاستعمالك لكلمة الديمقراطية بهذا المعنى المحدود هو استعمال غلط ؛ لأنه إذا كانت الديمقراطية هي حكم الشعب ، لزم عن ذلك منطقاً أن كل ما ليس بحكم للشعب فليس بحكم ديمقراطي ، سواء كان الحاكم به فرداً أو مجموعة من الأفراد ، وحتى لو كان هو الخالق سبحانه .

لكنني تمشياً مع المبدأ الذي ذكرته ساناقتك في الديمقراطية بحسب فهمك الغلط هذا لها ، فاقول لك : إن كل هذا الذي ذكرته هو من مبادئ الحكم التي اختارها الغربيون ، فصارت الديمقراطية في نظرك ليست حكم الشعب ، ومنهم شعب بلدك ، وإنما هي حكم الشعب الأمريكي أو الإنجليزي .

لقد تداول مفكرو الشعب الأمريكي ومثله مثلاً الرأي في نوع الحكم الذي يروونه صالحاً لبلادهم ، وتأثروا في اختيار ما اختاروه بكبار الفلاسفة والمفكرين الأوروبيين ، كما تأثروا بتاريخهم وقيمهم الدينية وغير الدينية ، ثم اتفقوا بأغليتهم على وضع دستور يضمن تلك المبادئ . أما أنت فلا تريد لأمتك أن تفكر كما فكروا ، بل تريد لها أن تكون أمة مقلدة تأخذ ما توصل إليه أولئك الأصلاء وتطبقه على بلدك مهما كان الاختلاف بينكم وبينهم .

- أنا لا أقول بما قلت ؛ لأن الغربيين قالوا به ، وإنما أقول به لأن تلك المبادئ الديمقراطية التي ذكرتها مبادئ إنسانية تصلح لكل البشر في كل زمان ومكان .

- هذا أولاً ليس بصحيح ؛ فقد كان معظم المفكرين الغربيين ضدها ، ولم تلقَ هذا القبول والشعبية إلا بعد الحرب العالمية الثانية ؛ فهل تقول : إن الناس لم يكتشفوا شيئاً هو من لوازم بشريتهم إلا قبل مئة عام ؟ ثم إن المبادئ التي ذكرتها ليست من لوازم الديمقراطية بمعنى حكم الشعب ، وليست من المتفق عليه بين كل الشعوب التي اخذت بالنظام الديمقراطي .

- هل تتكرم بذكر أمثلة لما ترى أنه ليس من لوازم الديمقراطية؟

- قد تستغرب إذا قلت لك إن النظام الحزبي ليس من لوازم الديمقراطية، وأن بعض من يسميهم الأمريكيين بالآباء الذين صاغوا دستورهم كانوا ضدها وكانوا يعدونها مما يذكي الخلاف بين الناس ومما يؤدي إلى الفساد. ولذلك لا تجد لها ذكراً في دستورهم. وقد يزيد استغرابك إذا قلت لك إنه حتى الانتخابات ليست من لوازم الديمقراطية. إن كل ما تتطلبه الديمقراطية هو أن يختار الناس من يحكمهم. أما أن يكون الاختيار بهذه الطريقة المعينة؛ فليس من لوازم الديمقراطية.

- كيف يكون الاختيار إذن؟

- لقد كان الأثينيون يختارون المسؤولين بالاقتراع. ويرى بعض المفكرين الماركسيين اليوم أن طريقة الاقتراع أقرب إلى فكرة الديمقراطية التي تساوي بين الناس وتفترض أن كل واحد منهم من حقه أن يكون حاكماً، وهم يرون أن الانتخابات لا تحقق هذه المساواة؛ لأنها تفتح الباب لتأثير المال وتأثير الإعلام والدعايات، ويستدلون على عدم المساواة هذه بالنسبة الكبيرة للرجال في مقابل النساء، وبالنسبة الكبيرة لمن له مال، أو لمن تخرج في الجامعات في مقابل طبقات العمال والمزارعين والعامّة. ولو كنت ممن يؤمن بالديمقراطية لاتفقت معهم.

- ننتقل إلى موضوع آخر. ألا ترى في الديمقراطية ما يتوافق مع الإسلام؟

- بلى فيها الكثير مما يتوافق مع الإسلام.

- فلماذا إذن لا نقول إن الديمقراطية التي نريدها هي هذه المبادئ الديمقراطية

التي تتوافق مع ديننا؟

- لأنني لا أريد أن أنسب إلى الديمقراطية فضلاً ليس لها. فإذا كان ديني هو

السابق إلى تلك المبادئ الحسنة؛ فلماذا أنسبها إلى الديمقراطية؟

- تنسبها إليها فقط ؛ لأنها تتوافق معها .

- إن في النصرانية واليهودية الكثير مما يتوافق مع الإسلام مما هو أهم من تلك المبادئ السياسية التي ذكرناها ؛ فهل نقول إن الإسلام نصراني أو يهودي ؟

- هل تعني أن علينا أن لا نستفيد من تجارب غيرنا ، وأن نغلق الباب دون كل فكر حديث وتجربة حديثة ؟

- أنا لم أقل هذا ، بل قلت لك : إن مثل هذه الاستفادة هي من لوازم الحكم بالقسط . لكن هنالك فرقاً بين أن ألتزم بديني ، ثم أستفيد من تجارب الآخرين فأضع كل جزئية استفدتها في إطار الإسلام ، وبين أن أستبدل بإطاري الإسلامي إطاراً آخر ، ثم أضع فيه ما يناسبه مما هو في ديني . وهذا الأخير هو ما تدعوننا إليه أنتم معاشر الداعين إلى الديمقراطية .

- نسيت أن أسألك : ما المبادئ الديمقراطية التي ترى أنها تتوافق مع الإسلام ؟

- منها : مبدأ حق الأمة في اختيار حكامها ؛ فيكيفيك فيه هذه القصة التي أوردها الإمام البخاري في صحيحه والتي سنجتزئ كلمات منها لضيق المجال . قال عبد الرحمن بن عوف لابن عباس وهم في منى : « لو رأيت رجلاً أتى أمير المؤمنين اليوم ، فقال : يا أمير المؤمنين ! هل لك في فلان يقول : لو قد مات عمر لقد بايعت فلاناً ؟ . . . . . فغضب عمر ، ثم قال : إني إن شاء الله لقائم العشية في الناس فمحذرهم من هؤلاء الذين يريدون أن يغصبوهم أمورهم <sup>(١)</sup> . . . . . من بايع رجلاً من غير مشورة من المسلمين فلا يبايع هو ولا الذي بايعه تغرة <sup>(٢)</sup> أن يقتل <sup>(٣)</sup> » .

(١) قال الإمام ابن حجر : « والمراد أنهم يثبون على الأمر بغير عهد ولا مشاورة . وقد وقع ذلك بعد على وفق ما حذره عمر رضي الله عنه » .

(٢) تغرة : فسرّها الإمام ابن حجر بقوله : أي حذراً من القتل . . . والمعنى : أن من فعل ذلك فقد غرّ بنفسه وبصاحبه وعرضهما للقتل .

(٣) كتاب الحدود ، باب رجم الحبلئ من الزنا إذا أحصنت .



ومنها مبدأ المسمى بحكم القانون، فيكفيك فيه قول الله - تعالى -: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، وقوله - تعالى -: ﴿فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وقول الرسول ﷺ: «يا أيها الناس! إنما ضل من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد. وإيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت محمد يدها»<sup>(١)</sup>.

ومنها مبدأ الإباحة الذي يسمى الآن بالحرية؛ فإن المبدأ الإسلامي يقول: إن الأصل في الأشياء الدنيوية هو الإباحة. فالإنسان يتحرك ويتكلم، ويأكل ويشرب، ويبيع ويشترى حتى يقول له الدين: لا تفعل كذا أو كذا. وإذا كان الإسلام قد جعل الدعوة إلى الله - تعالى - أعظم مهمة يقوم بها بشر، وإذا كان قد جعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الصفات المميزة للمسلم؛ فكيف لا يبيح له أن يعبر عن نفسه؟ لكنها حرية في إطار القيم والأحكام الإسلامية كما أن الحرية في البلاد الغربية الديمقراطية هي في إطار قيمهم وقوانينهم.

ومنها ما صار يسمى بالشفافية. هل رأيت دليلاً عليها أصدق من أننا ما نزال نعرف كل ما دار من كلام بين المسلمين في الشؤون العامة في عهد النبي ﷺ وفي عهد خلفائه الراشدين، بل نعرف كثيراً مما دار حتى بعد تلك العهود؟ ألسنا نعرف ما دار في اجتماع المسلمين لاختيار خليفة للرسول ﷺ؟ ألسنا نعرف ما دار بينهم في أمر قتال المرتدين؟ ألسنا نعرف كيفية اختيارهم للخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه؟

- إذا كان الأمر كذلك؛ فلماذا تخلف المسلمون في عصورنا هذه في هذه الأمور؟ ولماذا عمت بلادهم إلا قليلاً الحكومات الاستبدادية؟

(١) رواه البخاري في كتاب الحدود من صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها.

- هذه قصة طويلة لعلنا نناقشها في مناسبة أخرى . أما الآن فيكفي أن أذكركم بأن الدين إنما هو هداية وتوجيه ، وأوامر ونواهٍ ؛ فليس فيه هو نفسه ما يجبر الناس على تطبيق ما يؤمرون به . فإذا كان هنالك من خطأ فهو في الناس وليس في دين الله . ثم إذا كان الناس لم يلتزموا بهذه المبادئ وهم يعلمون أنها من دين الله ؛ فهل تظن أنهم سيلتزمون بها لأنها اتتهم من الغرب ؟ إنه لا بد من عمل لإصلاح الأمة لتقبل هذه المبادئ وتضحى في سبيلها .

- نحن ندعو إلى الديمقراطية ؛ لأن فيها من الآليات ما يحول دون هذا الانحراف ؟

- كلاً ، ليس فيها شيء مما تتوهم ، بل إن مفكريها يعترفون بأن النظم لا تصلح إلا بصالح الأمم . وما يقال عن الإسلام يقال أسوأ منه عن الديمقراطية ؛ فليس فيها ما يجبر الناس على الالتزام بكل مقتضياتها ، ولذلك فإن أسوأ دكتاتور عرفه الغرب إنما جاء بانتخابات حرة ، أعني هتلر ، كما أن كثيراً من الحكومات المنتخبة كانت حكومات فاسدة . بل إن أكبر القرارات والسياسات الظالمة كانت في عصرنا هذا نتيجة قرارات ديمقراطية لا شك في ديمقراطيتها . فاستعمار الغربيين لكثير من بلدان العالم بما فيها البلدان الإسلامية كان نتيجة قرارات ديمقراطية ، وغزو أفغانستان ثم العراق وقتل الآلاف المؤلفة من الأبرياء وتخريب البلاد كان نتيجة قرارات ديمقراطية لا يرتاب أحد في ديمقراطيتها . فإذا كان ما حدث في العالم الإسلامي إنما يعزى إلى البشر لا إلى الدين ؛ فإن كثيراً مما حدث في البلاد الغربية إنما كان شيئاً يأذن به المبدأ السياسي الذي يدينون به .

- كل هذا صحيح لا يماري فيه منصف . لكن أظنك تسلّم معي بأن هنالك شيئاً يعزى إلى الدين نفسه .

- ما هو ؟

- إن الإسلام يقر مبدأ اختيار الأمة لحاكمها ، ولكنه لم يلزم المسلمين بطريقة

معينة لاختيار الحاكم .

- وكذلك الامر في الديمقراطية . إنها إنما تقول إن الحكم للشعب ، وهذا يقتضي أن يكون الشعب هو الذي يختار حكامه . لكن ليس فيها ما يقول إن الحكام أو النواب يجب أن يُختاروا بالطريقة الفلانية . ولذلك فإنهم يختلفون في ما ينهجون من وسائل لاختيار حكامهم .  
- لكنها كلها تقوم على مبدأ الانتخابات .

- نعم ! لكن هذه هي الطريقة التي رأى الغربيون أنها مناسبة لهم في عصرهم هذا وفي ظروفهم هذه ، وليست الطريقة التي تلزمهم بها الديمقراطية . والمسلمون يستطيعون أن يختاروا لأنفسهم من الوسائل ما يحقق مبدأ اختيارهم لحكامهم ذاكرين أن الحاكم في الإسلام إنما يُختار ليحكم بما أنزل الله لا برأي من انتخبوه ، ملتزمين في ذلك بمبدأ الشورى كما أشار إلى ذلك الإمام ابن حجر في كلمته التي نقلناها آنفاً .

إن عدم تحديد الإسلام للطريقة التي يُختار بها الحاكم هي من محاسنه لا من نواقصه ؛ لأن هذه الطرق تتأثر بالظروف والملابسات التي تتغير بتغير الزمان والمكان . ولذلك فإن الغربيين حتى مع اتفاقهم على مبدأ الانتخابات وجدوا أن للانتخابات صوراً شتى تختلف نتائج كل واحدة منها عن الأخرى ، ولذلك اختلفوا في ما يتبنون منها . ولا داعي للدخول في تفاصيلها ؛ فهي أمور معروفة .

\* \* \*

(٢٥)

## يريدون ليطفئوا نور الله

(البيان ٢١٤ - جمادى الثاني ١٤٢٦ هـ - يوليو - أغسطس ٢٠٠٥ م)

كنا إلى وقت قريب نُجهد أنفسنا لنعرف حقيقة الموقف الأمريكي من الإسلام، وكنا نستنتج من مجموع سياساتهم أنهم ليسوا ضد هذه الجماعة أو تلك، أو هذه الدولة أو تلك، أو هؤلاء الإرهابيين أو أولئك، وإنما هم ضد الإسلام باعتباره الأيديولوجية التي تمثل فيما يرون الخطر الأكبر على الحضارة الغربية بعد سقوط الشيوعية.

لكن أمريكا أراحتنا الآن من عناء الاستنتاج وما يؤدي إليه من اختلاف بين من يقرؤون وينظرون ويستنتجون. أراحونا من عناء الاستنتاج؛ لأنهم صرحوا الآن بما كنا نستنتج وكتبوه وإن لم ينشروه. لكن عدم نشره لم يحل دون معرفته وإذاعة سره؛ فقد نشرت أسبوعية أمريكية مرموقة<sup>(١)</sup> مقالاً تناقلته كثير من وسائل الإعلام في أمريكا وخارجها، لا لأهمية الصحيفة والكاتب فحسب، ولكن لأهمية الموضوع نفسه.

نشر (كابلان) بحثه تحت عنوان: (القلوب والعقول والدولارات) ذكر فيه أنه قضى أربعة أشهر يجمع معلومات عن مشروع جديد سري للإدارة الأمريكية اسمه (البلوغ إلى العالم الإسلامي)، وأنه التقى ببعض من اطلعوا على المشروع. هذا المشروع يعبر عن سياسة جديدة هي التصريح بأن هدف الولايات المتحدة الذي تراه محققاً لمصلحتها الوطنية هو تغيير وجه الإسلام. وافق الرئيس بوش على المشروع، ووزعت نسخ منه لكل أذرع الحكومة الأمريكية.

(١) David Kaplan, Hearts, Minds and Dollars, U.S. and World Report, 4.25.05, [http://www.usnews.com/usnews/news/articles/050425/25roots\\_10.htm](http://www.usnews.com/usnews/news/articles/050425/25roots_10.htm)

- رُصدت للمشروع ملايين الدولارات.

- سيكون المشروع عبارة عن حملة من الحرب السياسية كتلك التي بلغت أوجها في أيام الحرب الباردة.

- جند لها مختصون في العمليات الحربية النفسية .

- وعملاء سريون من السي آي إي .

- وخصصت لها مراكز بحوث.

- ووسائل إعلام تمولها الولايات المتحدة.

- سيعنى المشروع بنشر القيم الأمريكية، قيم الديمقراطية، والتسامح، وحرية المرأة. وبالذات لطريقة الحياة الغربية.

- الوقفة بين المعتدلين والمتطرفين من الجماعات الإسلامية، والتعامل مع المعتدلين لمحاربة المتطرفين.

- يقوم عملاء السي آي إي ، بتشويه سمعة الجماعات الإسلامية والزعماء الدينين الذين لا يتبعون الخط .

- تغيير مناهج المدارس والمعاهد الإسلامية ليُحذف منها ما يروونه سبباً للتطرف وعدم التسامح . ويقول المقال إن الأمر بلغ بهم أن يولوا إنشاء مدارس إسلامية بهذه الموصفات .

تَأْمُرُ أَعْدَاءَ اللَّهِ عَلَى دِينِ اللَّهِ ، وَمَحَاوَلَتُهُمْ إطفاء نور الله ليس بالأمر الجديد . وليس بالغريب أيضاً أن يجدوا مِنْ بَيْنِ مَنْ يَنْتَسِبُونَ إِلَى الْإِسْلَامِ مِنْ عَيْنِهِمْ عَلَى تَحْقِيقِ مَا رَبَّهُمْ أَوْ يَضْعِفُ أَمَامَ إِغْرَاءَاتِهِمْ أَوْ تَهْدِيدَاتِهِمْ : ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ

أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾ [المائدة: ٥٢].

لكننا نريد أن نعلق تعليقات يسيرة على بعض الوسائل التي ذكروها رجاء أن لا يندفع بها بعض إخواننا المخلصين .

أولاً: قضية الديمقراطية: ما الذي تستفيده أمريكا أو يستفيده الغرب من أن تسود الديمقراطية في العالم الإسلامي إذا كان المقصود بالديمقراطية كما يفهمها معظم الناس عندنا إنما هو الانتخابات وتداول السلطة، والشفافية وحكم القانون وغير ذلك من أمور لا يعترض عليها المسلمون من حيث المبدأ؟ كيف تكون الديمقراطية بهذا المعنى وسيلة لتحقيق هدفهم بتغيير وجه الإسلام؟ إنها لا تكون، لكن الذي يكون هو الديمقراطية بالمعنى الذي يريدونه هم: الديمقراطية بمعنى حكم الشعب، بمعنى أن ينتشر الاعتقاد بين المسلمين بأن الشعب هو السلطة التشريعية العليا التي يحق لها أن تُحلَّ ما شاءت وتُحرِّم ما شاءت. والديمقراطية بمعنى النموذج الأمريكي، أي أن يفهم الناس من الديمقراطية التشبه بالولايات المتحدة في ما تتبع من مبادئ وما تصدر من قوانين، وما يرى الغرب أنه حق إنساني .

ثانياً: قضية المرأة: أيضاً نتساءل: ما ذا يستفيد الغرب من حرية المرأة أو من إعطائها حقوقها؟ لا يستفيد شيئاً إلا إذا فهمت حرية المرأة بفهمهم هم لها، حريتها في أن تلبس كيف شاءت، وأن تتزوج من شاءت من المسلمين وغير المسلمين. وأهم من ذلك أن تخرج من بيتها لتكون موظفة، وأن يعد هذا الخروج شرفاً لها بينما يعد عمل البيت وتربية الأطفال إهانة لها. كيف يخدم هذا الخروج هدفهم؟ لقد وجدوا بالتجربة أن المرأة إذا عملت قلَّ إنجابها أو انعدم؛ لدرجة أن أكبر مشكلة تهدد المجتمعات الغربية بل والصناعية بوجه عام بما في ذلك اليابان هي انخفاض عدد المواليد حتى وصفوا هذا بأنه انتحار. وهم يرون أن المسلمين ما زالوا يتوالدون، وأن نسبة الشباب بينهم أعظم بكثير من نسبتها في المجتمعات الغربية، وأن هؤلاء الشباب هم جنود الإرهاب والتطرف فلا بد من العمل على

الحد من تكاثرهم .

القضية الثالثة هي قضية التسامح والذي يعنون به أن يعتقد المسلم أن ما عنده من دين هو الحق الذي لا ريب فيه ، وأن كل ما خالفه فهو باطل ، أي أن لا يؤمن بمثل قول الله - تعالى - : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾ [يونس : ٣٢] .

﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾ [القصص : ٥٠] .

بل عليه أن يؤمن بالآخر ، بمعنى أن يعتقد في نسبية الحقيقة ، فيقول : إذا كان من حقي أن أرى أن ديني هو الحق ؛ فلماذا لا يكون من حقه هو أيضاً أن يرى أن ما هو عليه حق وليس مجرد تزيين شيطاني كما يصفه القرآن في مثل قوله - تعالى - :

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾ [فاطر : ٨] .

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾ [١٠٢] الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف : ١٠٣ - ١٠٤] .

ليس هنالك إذن حق مطلق ، وعلى فرض وجوده ؛ فلماذا يكون هو ما أعتقد أنه لا ما يعتقد أنه الآخر ؟

كتب أحدهم قريباً مقالاً بمناسبة المظاهرات التي خرجت في العالم الإسلامي محتجة على تدنيس المسؤولين الأميركيين للمصحف الشريف ، كتب يقول : إن مثل هذه المظاهرات هي من أسباب عدم احترام الناس للمسلمين . وقال إنه لم يحدث أبداً أن اليهود أو النصارى أو البوذيين قاموا بمظاهرات عنيفة كهذه في المرات التي عرّضت فيها دياناتهم للإساءة . ما علّم المغفل أن هذا نفسه مما يدل على يقين المسلمين بأن كتابهم الذي بين أيديهم هو كلام الله تعالى ، وأنه ليس لأهل الديانات التي ذكرها يقين مثل هذا بالنسبة لكتبهم .

القضية الرابعة هي قضية الدعاية لنمط الحياة الغربية : تقوم هذه الدعاية على خديعتين :

أولاهما : أن ما هم عليه ليس نمطاً أو ثقافة غربية خاصة بأناس معينين فيكون  
لغيرهم أن يختاروا من الأنماط والثقافات ما شاؤوا، وإنما هو قيمة إنسانية صالحة  
للناس أجمعين، وأن من لا يأخذ بها يكون بذلك ناقصاً من الناحية الإنسانية .

والخدیعة الثانية : هي أن نمط حياتهم ولا سيما ما يسمونه بـ (المديرنتي) هو  
وحده الصالح لعصرنا، وأن من لا يأخذ به من الأمم يكون بالضرورة متخلفاً،  
وأن هذا هو سبب تخلف العالم العربي بالذات . انظر كيف أن هذه الخديعة تقوم  
على افتراض يتناقض مع الخديعة التي قبلها ؛ فبينما تقول تلك إنه ليس هناك حق  
مطلق، وأن لكل فرد ولكل أمة أن تعتقد ما شاءت، تقول هذه : كلاً ؛ إن نمط  
الحياة الغربية هو النمط الإنساني والعصراني الذي لا يناسب البشر في عصرنا  
غيره . ولكن لا عجب فالباطل دائماً لجلج متناقض لا يؤثر إلا في من هو أصلاً  
مأفوك :

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۖ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۖ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾

[الذاريات : ٧ - ٩] .

لكننا نقول : إن الحذر من مؤامرات الأعداء شيء، والوسوسة شيء آخر .  
علينا أن نحذر مؤامرات الأعداء، لكن علينا أيضاً أن نكون عقلاء ؛ فلا نترك  
شيئاً نعلم أن فيه خيراً لنا دينياً أو دنيوياً لمجرد أن الأعداء يستغلونه . علينا أن  
لا نبالغ كما يفعل بعض الناس في الاعتقاد بأن كل ما يحيكه الأعداء وكل ما  
يخططون له ينفذ كما يريدون ؛ فالله - تعالى - يؤكد لنا عكس ذلك :

﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ [المائدة : ٦٤] .

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج : ٣٨] .

فعلينا أن نتذكر إذن مع أخذنا بالأسباب أن سلاحنا الذي لا يُفْلُ هو إيماننا،  
وأنه كلما قوي إيماننا وازداد يقيننا تحقق وعد الله بالدفاع عنا .



## فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
١ - يا فوكوياما! نحن مع التحديث وأبعد الله التغير	٧
٢ - الإنصاف في معاملة غير المسلمين	١١
٣ - الاعتبار بمآلات معاصي الكفار	١٦
٤ - الحرية والعبودية	٢٠
٥ - هل نداوي بالتي كانت هي الداء؟	٢٥
٦ - سياسة التناقضات المستعلنة	٣١
٧ - يريدوننا غنماً . . هم رعاتها . . وهيها	٣٥
٨ - أديمقراطية هذه . . أم أمريطانية؟	٤٠
٩ - الحوار مجادلة جادة لا مدهنة	٤٤
١٠ - المفهوم الغربي للوهابية	٤٩
١١ - الاعتقاد في حفظ السنة	٥٣
١٢ - الديمقراطية اسم لا حقيقة له	٥٨
١٣ - سهام بوش ضد الإرهاب	٦٧
١٤ - تم . . تم . . تم . . أسلوب جديد ركيك	٧١
١٥ - ماذا يعدون لمواجهة المد الإسلامي	٧٥
١٦ - أمريكا المريضة	٨٠
١٧ - الإسلام السياسي	٨٤
١٨ - الدين دينان: منزل من السماء . . ومتخذ في الأرض	٩٠

الموضوع	الصفحة
١٩ - عبر من فتنة دارفور	٩٦
٢٠ - الإسلام الهولاني	١٠٠
٢١ - قضية العلمانية والدين في البلاد الغربية	١٠٥
٢٢ - الإسلامفوبيا	١١٠
٢٣ - المواطنة والهوية	١١٥
٢٤ - القسطنطية لا الديمقراطية	١٢٣
٢٥ - يريدون ليطفئوا نور الله	١٣٢
- الفهرس	١٣٧